المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع



ايديولوجيات الحرب والسلم

بإشراف فرنسوا شاتليه


ايديولوجيات
الحرب والسلام

مقدمة

يتناول كتاب « أيديولوجيات الحرب والسلم » أفكاراً ونظريات ناقشها المفكران « أندريه كلوكمان » و« كريستيان ديكان » من زوايا مختلفة ، وباسلوب يجمع بين عمق التحليل ودلالة التجربة .

ناقش الأول أيديولوجيات التعايش السلمي : من التعايش الاقناعي الى التعايش الردعي مؤكداً أن الشعوب القادرة على خوض الحروب « تحريرية » كانت أم « قومية » أم « مقاومة » ، هي نفسها قادرة على السلام .

ويعالج « كلوكمان » المنطلقات النظرية والأرضية المصلحية لشعار التعايش السلمي الذي أطلقته القوتين الأعظمين في القرن العشرين مشيراً إلى أن بين الحرب والسلم ، كما بين الشعوب ، حدود لا يستحيل تجاوزها وليست مضمونة ، ولكنها موجودة رغم ذلك . فما الذي سمح أحياناً بالاتفاق حولها نسبياً . . . حيث أن دوافع الحرب ، مثل دوافع السلم ، ليست في علاقة دولة بأخرى ، بل في علاقة الشعوب بالدول .

ويعتبر كلوكمان بأن الاعلان عن التعايش السلمي بأشكاله المختلفة إن هو إلا بدعة من بدع دوائر « العلاقات العامة » للسلطات القائمة . وهو يشكل بالتالي أيديولوجيات بالمعنى الأكثر ابتذالاً للكلمة ، وخدعة فظّة تحجب بمشاعرها الطيبة ، الطريقة الفعلية التي تتخذ بها القرارات في القمة . إن الأشرطة المسجلة

لمحادثات الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون مع مستشاريه المقربين تدخل في عداد روايات السلسلة السوداء أكثر مما تدخل في العالم المزخرف والمتكلف لخبراء مؤسسات البحوث .

أما كريستيان ديكان فقدم نقداً علمياً للايديولوجيات الاستعمارية ، ثم استعرض الايديولوجيات التحريرية انطلاقاً من تجارب شعوب في العالم الثالث . وشرح بإسهاب نظريات قادة هذه التجارب أمثال : ماوتسي تونغ والاستراتيجيا ، جياب وهوشي منه وجبهة التحرير القومي ، فانون وعنف الاختلاف ، نكروما والوحدة الافريقية ، غيفارا ونظرية « فيتنامان أو ثلاثة جدد » ، ويستطرد ديكان في بحثه الى أيديولوجيات الصمود وصولاً الى التمرد الذي لا ينتهي .

ويؤكد ديكان أن التمردات المعاصرة موجودة رغم الايديولوجيات الحديثة التي تحاول أن تتخطاها بشتى الطرق ، سلمية كانت أم عنفية ، باسم التقدم التقني والتوسع الاقتصادي - الثقافي أو الثورة الاممية والنهائية . وتعلم جميع الايديولوجيات المسيطرة في القرن العشرين (الماركسية والليبرالية ، وغيرها) ان زمن التمرد قد ولّى ، غير أن كل تاريخ القرن العشرين نسجته تمردات غير متوقعة من قبل السلطات القائمة (الثورات المناهضة للاستعمار ، المقاومة المناهضة للفاشية ، التمرد المناهض للسوفييت في أوروبا الشرقية) . ويبقى جوهر الاستراتيجيات الحكومية هو السيطرة على احتمالات التمرد في المجتمع المعاصر أو التكامل معها .

****

إن إقدام المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع على نشر هذه السلسلة لا يعني بالضرورة اقتناعاً بما تناولته هذه

الأبحاث من أفكار ونظريات . ويبقى نشر هذه السلسلة في إطار الرغبة بوضع هذه الآراء والنظريات أمام القارىء العربي ليطلع عليها ويأخذ منها ما يتلاءم مع أهداف المجتمعات العربية المتطلعة دائماً الى التقدم .

الناشر

1 ـ ايديولوجيات التعايش

بقلم أندريه كلوكمان

من الأفضل لنا أن نعيش في السلم من أن نعيش في الحرب . انطلاقاً من هذه الفكرة البعيدة عن الغباء والتي أجمعت عليها أكثرية الآراء منذ بدء الأزمنة ـ وخاصة منذ بدء أزمنة الحرب ـ تلقي « فلسفة » التعـايش السلمـي ضبابها الكلامي . فلسفة ؟ أم فلسفات بالجمع ؟ ايديولوجيا ؟ نظرية ؟ هل المقصود المحاجبة عقلانياً ، أو المحاجة فقط في إطار المعقول أو الأخلاقي أو العاطفي ؟ يلعب واضعو السيناريو بكل الملامس من أجل تنسيق هذا العلاج المعروض بوصفه كفيلاً بالقضاء على جنـون الـدول والأمـم : « التعـايش السلمي » .

تتخطى الدراسات الأكاديمية في مادة الحروب والسلم بكثير أسـوأ ما عرف في الآداب والفنون في أفضل عصور « النظام » الأخلاقي . وهنا يجدر التعقيب على جيد (Cide) : فبـالآراء « الصالحـة » ، بالآراء الموسومـة « صالحة » من قبل النخبة الحاكمة لا نقيم سلاماً دائماً ، كما لا ننتج بها أدباً جيداً . حتى ولو توقعنا من الحكومات أن تبدو عقلانية أو عاقلة . اللهم إلا إذا تغيرت السلطات المسيطرة على الحياة السياسية في العالم : إن هذه السلطات التي تتحمل ، كلما تقدم التاريخ ، مسؤولية تنظيم وتنفيذ نزاعات ذات صفة عالمية وفتاكة أكثر فأكثر ، قد خضعت في تكونها لتغير مفاجىء ، وعميق لتصبح فجأة مراكز لسلطات يفترض بها أن تتعايش سلمياً .

إن النظرية التي يضمرها المدافعـون عن التعـايش السلمـي بأشكالـه المختلفة والذين يتنوعون كثيراً من الناحية الثقافية ويختلفون بعض الشيء من

الناحية السياسية تقول بأن القرن العشرين قد أفرز بنوع من التولد الذاتي دولاً قوية ومسالمة . وهذا ما يدفعنا للإعتقاد بأن الإعلان عن التعايش المذكور إن هو إلا بدعة من بدع دوائر « العلاقات العامة » للسلطات القائمة . وهو يشكل بالتالي أيديولوجيا بالمعنى الأكثر ابتذالاً للكلمة وخدعة فظة تحجب بمشاعرها الطيبة وعقلانيتها المزعومة، الطريقة الفعلية التي تتخذ بها القرارات في القمة . أن الأشرطة المسجلة لمحادثات أحد رؤساء الولايات المتحدة (نيكسون) مع مستشاريه الأكثر أخلاصاً وأهمية تدخل في عداد عالم روايات السلسلة السوداء أكثر مما تدخل في العالم المزخرف والمتكلف لخبراء مؤسسات البحوث . هذا إذا لم تكن الرواية البوليسية والنظريات الردعية تروي ، أساساً ، القصة ذاتها ؛ في هذه الحالة ، ينبغي الإعتراف للرواية بأفضلية الوضوح والتمييز . إن من يفترض مهارة أكبر في الرأي ودقة أكبر في التحليل لدى الشيوخ السذج الذين يتخذون القرارات في الكرملين ، يصطدم بعقبة : إذ أنه يتخيل وجود حب للعقل وميل إلى « عصارة الحنان الإنساني » لدى أسياد الغولاغ . Goulag .

قل لي مع من تنوي أن تتعايش أقل لك من أنت : لا يبدو السلام في المستقبل مضموناً إلا قليلاً مع النظريات المطروحة ، ولكن هذه النظريات تعلمنا الكثير حول الأوهام التي تعلل بها السلطات الحديثة رعاياها . التاريخ هو تاريخ العظماء ، وترى النظرية حقيقتها في أن توجه نصائحها الحكيمة للأمراء الذين يحكمون ـ هذه فكرة شائعة عند المنظرين . أما الصور التي يعرضونها عن العدو المفترض أن نتعايش معه فهي أكثر تعبيراً . هل هو صالح ؟ هل هو شرير ؟ لا تخرجنا الفرضية الأولى من العالم الكلاسيكي حيث يوجه المستشارون العقلاء (والذين وسموا مجدداً « بالعلميين » من أجل مماشاة العصر) نصائحهم بالإعتدال والوفاق الجيد والمزاج الطيب إلى امراء ، يفترض أن يكونوا ، رغم عدائهم لبعضهم ، فطنين ومتجردين بما فيه الكفاية كي يعيروا انتباههم لهذه الأحاديث الهادية . أما الفرضية الثانية فهي تنقلنا من التقليدية إلى الحداثة ومن الإقناع إلى الردع : تتبدل الأمور ويصبح الحكام

مدعوين للإتفاق ليس على شيء ما ، إنما انطلاقاً من لا شيء ، هذا اللاشيء الذي لا يمكنهم إلا أن يرضخوا للإبتعاد عنه ، (كلهم ومهما كانوا ضالّين) إنه لا شيء القيامة النووية .

تقع الفرضيتان في النهاية في الفخاخ نفسهـا ؛ فالإجراجـات العملية للعمل الأخلاقي وللعمل الردعي تجعلنا نتعثر في حالات التردد نفسها : متى يجب الإتفاق رغم مخاطر الإنخداع ؟ وفي أي وقت ينبغي التوقف خوفـاً من المضي بعيداً أكثر من اللزوم دون معرفة ما إذا كان الفريق الآخر سيذهب إلى أبعد من ذلك بقليل ؟ فمن يوشك أن يطلق النار أولاً ؟ ومن هو الذي يحاول أن يكون الأخير ؟

وهل أن هاتين الفرضيتين لم تخطا السؤال الصحيح : من يردع من ؟ ومن يتعـايش مع من ؟ إذا افترضنـا هذه الأسئلـة محلولـة أصـلاً ، وبسرعة قصوى : أي أن الدول تردع الدول ، فهل ليس هناك ، بالعكس ، ممارسة محدودة للتعايش ولكنهـا واقعية ، لا تردع الدولـة بالدولـة بل . . . بالـرأي العام ؟ بالسكان ؟ ليس المقصود ، تجاه فشل نظريات التعـايش ، استبـدال الدول بلاعب آخر أكثر عطاء ، ولكنه أقل وجوداً (من طراز : « البشر ذوي الإرادة الطيبة » أو « البروليتاريا الأممية ») . يتدخل في لعبة التعايش الردعي التي تقودها الدول الحديثة ، لاعبون آخرون ، أحياناً ، يفتـرض أن يكون اتفاقهم صامتاً ، كأنه آلي ، كما يقدر ذلك الخبراء الحاليون .

يمكن السعي لاستشفاف ما ينظم تناوب علاقات الحرب والسلم ، في التاريخ وفي حياة الأمم الحالية . ثمة بين الحرب والسلم ، كما بين الشعوب ، حدود لا يستحيل تجاوزها وليست مضمونة ، ولكنها موجودة رغم ذلك . فما الذي سمح ، أحياناً ، بالإتفاق حولها (نسبياً) ؟ ينبغي أن نسأل خبراء أقل طموحاً من خبراء التعايش السلمي وأكثر تقليدية (كلوزفتش ومـكيافيلي) لاكتشاف أن دوافع الحرب ، مثلما هي دوافع السلم ، ليست في علاقة دولة بأخرى بل ، وبعمق اكثر ، في علاقة الشعوب بالدول . تلك الشعوب القادرة على خوض الحروب (المسماة « تحريرية » أو « قومية » أو « مقاومة » وكلها ،

أصلاً ، دفاعية) هل هذه المجموعات قادرة على السلام ؟ ليس ذلك بافتراض « الأخوة » المتبادلة بين الجميع ، ذلك لم ينجح لدى ابناء الله أكثر من نجاحه لدى البروليتاريين من كل البلدان فهم لم يتفقوا ـ ماركسيين كانوا أو غير ماركسيين قطعاً إلا ليتذابحوا . لكن ، ربما أن المواقف الدفاعية التي وقفتها شتى الشعوب (او مجموعات السكان) قابلة لأن تتوازن . هذا هو الأمل الخفي الذي بإمكاننا محاولة تتبعه من خلال تحليلات مكيافيلي وكلوزفيتش .

التعايش الإقناعي

أطلقت فكرة « التعايش السلمي » في سوق الرأي العام العالمي من قبل قادة القوتين العظميين في نهاية هذا العصر . وقد احتفى العالم بها بصخب واعتبرت بداية حقبة سلام تختلف جذرياً عن التاريخ الماضي . لكن العقود اللاحقة كذبت هذا التفاؤل المتسرع لأن الصراعات والمجازر التي شهدتها لا تختلف عن المعدلات العادية في التاريخ المتمدن .

لم تكن الفكرة أحدث عهداً من الواقع الذي كانت تعبر عنه . لقد أخذ خروتشيف الذي كان يومها قائداً للإتحاد السوفياتي العبارة من لينين . كان هذا الأخير يعني من خلالها أن روسيا السوفييتية الفتية ، لم تكن تنوي (بعد اخفاق الجيش الأحمر أمام فرصوفيا) تغيير نظام الدول المجاورة بالتدخل المسلح . ولم يجزم ستالين ، مهما قال عنه خلفه ، بشيء آخر « لا تصدر الثورة على رؤوس الحراب ») ، حتى أنه يمكننا أن نقر أن القادة الروس المتعاقبين أكدوا دائماً « مبدأ التعايش السلمي » وإن كنا نستطيع الشك بأنه حكم ممارستهم لحظة واحدة . وفي الواقع لم يمتنع أي خلف للينين عن استعمال جيشه من أجل تغيير نظام البلدان المجاورة بالقوة ، حيث سنحت الفرصة .

هكذا تلتقي « المبادىء » الإحتفالية جداً ، التي اعلنتها القوتين العظمتين ، بمشاريع « السلام الدائم » التي لا تحصى والتي كان فولتير قد وصف تراكمها : « . . . نحن أمبراطور الصين ، عرضنا في مجلس الدولة

لدينا ، الألف نشرة ونشرة التي تذاع يومياً في البلدة المشهورة باريس ، من أجل تثقيف الكون . ولاحظنا بارتياح امبراطوري ، أنه في البلدة المذكورة الواقعة على ساقية السين الصغيرة ، والتي تعد حوالي خمس مئة الفاً من الظرفاء ، أو ممن يودون الظهور كذلك ، ينشر من الأفكار أو طرق التفكير أو التعابير الخالية من الفكر أكثر مما يصنع من الخزف في بلدتنا كينغ تزين على النهر الأصفر والتي يبلغ سكانها ضعف سكان باريس والذين لا يصلون إلى نصف الظرف الذي نجده في سكان باريس . . . » .

من يفترض بعد أن المبادىء الآنفة الذكر لا تزال تسيطر بلطف على رؤساء الدولة الكبار ، وأنها تنظم العلاقات الدولية أكثر فأكثر وأنها تسير بهدوء أمم القرن العشرين نحو الوفاق الكوني في القرن الحادي والعشرين ؟ ان النوايا التي تعلنها الحكومات هي دائماً صالحة ، و « التعايش السلمي » يزيدها إعلاناً آخر . ولكن ماذا بعد ؟ أن الموظفين المكلفين به يمتدحون سياسة التعايش السلمي لحكوماتهم ويجرحون بسياسة الخصم . لكن فكرة التعايش السلمي تطمح الى أن تعني أكثر من شعار إعلاني وموضوع دعاية جيدة :

1) بامكاننا أن نأخذ فكرة التعايش بمدلولات متعددة هي الحلول المختلفة التي نزعم تقديمها لمشكلة ، انها المشكلة نفسها : ما هو السبيل لجعل اعداء كامنين يتعايشون ؟ كيف تنظم علاقات حسن الجوار بين الجيران غير « الصالحين » من حيث المبدأ ؟ كيف يتمكن من الإتفاق أشخاص حذرون وهم يحذرون وفاقهم بينما يتفقون بحذرهم ؟

2) تعطى فكرة التعايش لتحديد نظام دولي ؛ ويفترض ، حسب الظروف ، أنها تصف أمراً واقعاً مطابقاً تماماً ، أو أنها تحدد المعيار الوحيد العقلي أو المستحب بالإشارة إلى حالة قانونية ، أو أنها تحدد العمل الآلي أو الخفي التوجيه لنظام دولي يفرض قوانينه الخاصة على ممثلين يجهلونها . تدعي فكرة التعايش السلمي تحديد عقلانية العلاقات بين الدول ، وذلك مهما كان مفهومها وصفياً أو قياسياً أو بنيوياً (« نظامياً ») .

ولسوء الحظ لا يتعلق التعايش بأي من هذه الأبواب الثلاثة :

أ ـ ليس التعايش السلمي واقعاً . ربما تبدو بعض فترات التاريخ أقل دموية من غيرها ولكننا لا نصفها « بالسلمية » إلا من خلال وهم مرتد إلى الماضي . لقد ذاقت أوروبا « عصرها الذهبي » بين عامي 1870 و1914 مع مكافأة السلم والصناعة والتجارة والآداب والفنون ، وكانت أيضاً حقبة الحملات الإستعمارية الكبيرة وسباق التسلح وتدفق المشاعر القومية . وكان « زمن السلم » هذا يحضر للحروب العالمية في القرن العشرين . ولا يعرف التاريخ حقب سلم حتى ولو أن البعض منها يبدو أقل حروباً من غيره ، أن أهل كلمة Paxromana (السلام الروماني) يعيدها إلى الركاسة المغروسة في الأراضي التي احتلت مؤخراً والتي من خلالها كانت الأمبراطورية تفرض على المغلوبين الذين أصبحوا عبيداً ، سلامها أي شريعة الأقوى . ليس هناك من حكمة عملية تتيح التمييز بين ما نريد أن نثني عليه بأنه « عادي » أي السلام وما نود أن نحكم عليه « كمرضي » ، أي الحرب . هذا ما أوضحه أول الفلاسفة : « الحرب أي بوليموس ، أب الكل وملك الكل الذي يشير إلى هؤلاء بأنهم آلهة وإلى أولئك على أنهم بشر ، ويظهر البعض أحراراً والبعض الآخر عبيداً » (هيراقليط) .

ب ـ ليس التعايش السلمي معياراً . طبعاً ، نجعل الأخلاق الشعبية تقول : « لو أن كل الناس الطيبين في العالم يريدون التصافح . . . » ، إن تفاؤل الشاعر بول فور هذا ، وتفاؤل الصحفيين المحظوظين بالمشاعر الطيبة لا يتحقق إلا نادراً ، غالباً ما تتحول الدائرة الشعبية إلى رقصات جنائزية والناس الطيبون يذهبون إلى الحرب وهم يغنون مثل الآخرين . ليس علم الأخلاق المتخصص أكثر تقدماً ، بل هو ينصحنا مع كانت Kant ألا نعامل قريبنا كأداة ، ويوشك هذا العلم أن يبقى صامتاً حول وسائل منع الآخرين من معاملة القريب كأداة ويجيب هيغل وبيغي Peguy وسارتر ، وكل واحد ، أنه لو أردنا أن يكون لنا وسائل ، فهي ستكون غير شريفة . ويدور الحساب العاقل أيضاً في مجال ضيق ، السلم أفضل من كل شيء ، وليس الحرب فقط ؟

أنه لمن غير المجدي دعوة الشعوب ورؤساء الدول إلى التعقل والحس السليم ؛ وبالتأكيد يفضل كل الناس السلام العاقل . إلا أن هذه الاعتبارات المليئة بالحكمة تخرج عن المسألة من أجل حلها حلاً أفضل : لقد أصبحت الحرب كلامية . فماذا تعنون بالحرب ؟ وما ستعنون بالسلم ؟ إذا كان المؤرخ لا يتمكن من تحديد السلم الحقيقي ، فالحس السليم لاستاذ الحكمة الكونية يغير الموضوع فجأة حين يقصد الإتفاق على ما نزعت احاطته بكلمة « حرب » « كل فاتح هو دائماً صديق للسلم . . . وهو يريد أن يدخل دولتنا دون مقاومة » ، هذا ما يلاحظه كلوسفيتس ، هذا القائد البروسي الذي توفي عام 1831 ، والذي لا تزال تحليلاته تشغل بال كل مجالس القيادة ، « ثورية » كانت أم لا .

تتخفى الحروب الحديثة بأسماء مثل حروب « التهدئة » أو « التحرير » أو حتى « الثورات » وعندما يتفق الجانبان على اعتبارها حروباً تكون قد قاربت من نهايتها . أن أي معيار اخلاقي أو محض منطقي يسمح بالإتفاق لإزالة الحرب « كأسوأ الشرور » يكون بمثابة ظاهرة عجيبة : إذا اتفقنا على رسم حد واضح بين الحرب والسلم نكون قد اتفقنا ، أساساً ، على كل الحدود . فإن لم يكن ثمة خلاف ليس هناك من حرب : ليس التعايش السلمي إذا أخذ كمعيار ، سوى أمنية تقية ، « لقد بدا لي أكثر ملاءمة ، اتباع حقيقة الشيء الفعلية وليس تخيله » (مكيافيلي) . وباسم الحقيقة الفعلية للشيء تضع الحرب بين قوسين كل فضيلة لا تلاقي صدى لها في معركة محتملة : « كان كل الأنبياء المسلحين جداً منتصرين ، أما المسالمين فخذلوا » (مكيافيلي) . إن لم يكن التعايش السلمي معياراً فهو بالتأكيد رسالة ، ولكنها مسلحة جيداً .

ج ـ ليس التعايش قاعدة (أو نظاماً) للإشتغال الضروري للعلاقات الدولية ، فهو لا يشكل شرط الحياة للحياة الدولية . الحق يقال ، إذا لم يكن التعايش أمراً واقعاً أو معياراً يمكن تحديده بلا التباس ، يبدو من الصعب تصوره بنية للتعامل بين الأمم . ومع ذلك هناك مئات من الدراسات

الحديثة ، وهي أميركية في معظمها ، تزعم تنظيم « القوانين الطبيعية » لنظام الأمم ولعبة التفاعل التي تفسر سلوك كل لاعب على المسرح الدولي. ويقتضي وصف هذه النظم استلهام « منطق » مختلف لكل منها . هناك المنطق المتكلف للنظرية الرياضية . . . والمنطق الأكثر علموية لعلم التوجيه وعلوم مشابهة ، والمنطق التاريخي ـ الديبلوماسي لتجربة الماضي (الدفاع عن « التوازن » بين الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر من قبل كيسنجر الجامعي ومنظم السياسة الخارجية الأميركية في عهد نيكسون) .

تستلهم كل هذه التيارات المختلفة الحجة نفسها من أجل اثبات وجود توازن ، تناقش دوافعه إلى مالا نهاية : لو لم يكن هذا التوازن موجوداً لهلكنا جميعاً . تجري الأمور ، هنا ، كما في الرياضيات أي من خلال برهان الخُلْف ، وهذا البرهان هو « الفعل النووي » . يجب وضع تكاثر النظريات ذات المظهر العلمي حول التعايش في عداد الإنعكاسات التي نشأت من حالة هيروشيما وناكازاكي . غير ان ذلك ليس من البراءة بقدر ما يمكن أن يبدو ، خاصة إذا لاحظنا أن هيروشيما ونكازاكي هما أيضاً انعكاساً لتلك النظريات التي لا تزال متعلثمة ، ولكنها «فعالة» .لقد ثبت بالواقع ان القنبلتين اللتين اسقطهما ترومان رئيس الولايات المتحدة آنذاك على تلك التجمعات المدينية اليابانية الكثيفة كان لها ، أساساً ، هدف سياسي هو التأثير على الإتحاد السوفياتي (لمنعه من ابتلاع أوروبا الشرقية) أكثر من الحصول على استسلام اليابان التي كانت قد أصبحت راكعة .

كان ذلك إقراراً بأن التعايش المرتقب لم يكن سيستند إلى الإقناع (المادي : بميزان للقوى ، يفترض أن تكون واقعية ، أو المعنوي : بقناعة يفترض أن تكون متبادلة) بل إلى الردع وإلى القلق المشترك من كارثة خطيرة وقاضية .

التعايش الردعي

ليست المدن المبادة نادرة في تاريخ الحروب . تسجل قنبلة هيروشيما ذروة (ربما مؤقتة) في ستراتيجية الإبادة التي عرفت قبل السلاح النووي .

تشكل غيرنيكا Guernica التي محتها الطائرات الألمانية عن الخريطة، أبان الحرب الأهلية الإسبانية . ودرسدDresde التي حولتها المدمرات الأميركية إلى رماد ، « انتصارات » للستراتجية العسكرية ـ النفسية التي تهدف أساساً إلى اضعاف المعنويات لدى الرأي العام . ولا تدخل أي جديد الناحية العملانية للتدمير الذري في المدينتين اليابانيتين الكبيرتين : لقد توصلت بعض موجات القصف الكلاسيكي إلى عدد مشابه من الضحايا . في أمكنة أخرى .

لكن قذيفة كهذه لا تطلق دون حسابات مسبقة . هنا تكمن العقدة . تلك هي المرة الأولى التي تدمر فيها مدينة كبيرة في اليابان للحصول على مكسب في نهر الفيستول. كان سقوط القنبلة فوق رؤوس اليابانيين ، وضمانها بذلك . . . الإنتصار الروسي ـ الأميركي ، يهدف إلى تليين موقف الروس ، حلفاء الأميركيين وأعداء اليابانيين. لقد ظهر التقدير خاطئاً كما هو معلوم، ولم يتهاون ستالين أبداً حول بولونيا وأوروبا الشرقية . ويقال : بالنسبة لهذه العناصر المحددة ، كان التقدير خاطئاً ، لكن من يدري ، أنه لم يساهم بإيقاف الدبابات الروسية بضمانة « التغطية النووية » للغرب الأوروبي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ؟ إن المناقشة غير قابلة للحسم نظراً لتناولها . . . أسباب حدث لم يحصل وإنما يبدو مشكوكاً فيه أن يكون الروس في تلك الفترة قادرين على ابتلاع قطعة بهذا الحجم : كل القارة الأوروبية . غير أن هذا الأمر ليس كبير الأهمية ، تشير المناقشات إلى أن الأحداث والوقائع العملانية لم تكن هي الحاسمة : كل شيء يبدو مرتبطاً بالنفسية التي حكمت ترومان عندما قذف قنبلته وبالذهنية التي دون بها ستالين ملاحظاته عليها (نعلم أن موقفه في بوتسدام بقي غامضاً ، عندما همس له الرئيس الأميركي أنه سوف يستخدم سلاحاً جديداً ومرعباً . لا زلنا حتى اليوم نناقش هل فهم ؟ هل كان ساخراً ؟ هل كان على علم ؟) . فجأة أعلن السلاح الجديد « مطلقاً » لأنه ربما جعلنا ندخل في عالم جديد هو عالم الردع . لا يقوم الأميركيون برصف رجال ضد رجال ، في مواجهة الجيش الأحمر القوي . فهم لا يحاصرون البلدان التي يفكرون « بحمايتها » ، بقوات معادلة لقوات خصمهم الكامن . ليس مهماً أن نعرف إذا كان ذلك بمتناولهم ، لأن روح الردع هي

المسيطرة ولم يعد المقصود قياس قوى بقوى أخرى أو الرد على الضربات بضربات مماثلة . لقد حلت علاقة التهديدات مكان علاقات القوة، « أنك تستطيع ، طبعاً ، أن تجتاح رقعة الأرض التي أطوبها لي ، عندها لا يبقى لي إلا أن أدمرك بالذرة إن لم يكن بوسعي مقاومتك خطوة خطوة » وهكذا يتم الإنتقال من فن الإجبار إلى فن الردع الذي نتيقن من بلوغه تماماً عندما يصبح متبادلاً ، لأن كل قدرة حرارية ـ نووية تستطيع ، حتى وهي في حالة نزاع ، قتل القدرة التي بدأت بالضرب (وذلك بفضل قوة ما يسمى « بالضربة الثانية ») .

في الماضي ، كان التعايش السلمي بين أمم عدوة يصور كنتيجة لتوازن القوى . منذ ذلك الوقت ، ناب عنه توازن التهديدات وهي تهديدات نهائية ، كن هادئاً وإلا حذفتك (التي أصبحت سريعاً : أو ننفجر نحن الإثنين) . ثمة تبدلات متعددة في الموضوع إذا لم نكن نريد أن نفنى نحن الإثنين ، علينا أن نحيا معاً . ففي عالم ، حيث يبدو الخوف من موت مشترك حجتنا الكبرى للعيش جنباً إلى جنب ، تأتي الإيقاعات المتناوبة نتيجة الحروب الباردة والسلام الحار ، وسياسات حافة الهاوية وروح الوفاق ، والهاتف الأحمر ، والتهديدات والأبواب المصفقة ، و العواصف . لقد أعلن ترومان الذي كان رئيساً لأول قدرة مرشحة لأن تصبح نووية ، قبل هيروشيما : « ان مستقبلنا يكمن بين أيدينا » .

مشروع للسيطرة على العالم .

جهة الوجه : مع الحذر الرادع ، لا نأخذ أبداً الإحتياطات الكافية ، وماذا إذا كان الخصم الكامن يستطيع رغم كل شيء تعطيل قدرتنا على الرد بعد أن نكون قد ضرُبنا ؟ فلنطور السلاح النووي ! وماذا إذا كان هذا الخصم يخطط لأستنزافنا ورقة بعد ورقة (ستراتيجية الأرضي شوكي) ؟ أو بيدق بعد بيدق حتى اندثار بنائنا (نظرية « الدومينو ») ؟ فلنطور عندها ، السلاح التقليدي ! وإذا استفاد من كل اتفاق لتحديد الأسلحة نوقعه معه ، لتجنبه وتجاوزنا ؟ فهو يستطيع اختراع أسلحة جديدة ، ليست واردة بين الأسلحة

الممنوعة أو أدوات جديدة لتعطيل تهديدنا . بل هو يستطيع الكذب ؛ ينبغي عندئذ أن نطور الإستقصاء والتجسس وإذا هاجمنا رغم كل شيء ولكن على نطاق ضيق ؟ فيأخذ منا مدينة ثم يعلن أن تهديدنا بالرد الحراري ـ النووي لا يتناسب مع عمله . فلنعبء إذاً النفوس ولنبرز قوتنا ! لكن ماذا إذا اعتقد أننا نستعد للهجوم عليه بهذه الجلبة ؟ عند ذلك يجب أن ننهي النفير ! وبما أنه يمكننا الحصول على نفس التحليلات وبذات القدر من الواقعية عند كل فرقاء اللعبة الذرية ، تبقى الأيام المرتقبة حلوة لتجار القذائف وللمتكلفين في البحث والتطوير حول هذه المواد وكذلك بالنسبة للاختصاصيين في مجالات « التحدي » و « الوفاق » أي علماء النفس المتخصصين في التلاحم النووي .

من جهة القفا : الوفاق التعايشي بين الدول العظمى ، اليست مسؤولة عن الكرة الأرضية من حيث امتلاكها لما يستطيع تفجيرها عدة مرات ؟ أليس مناسباً تنظيم كل الحلفاء وربط كل المستقلين وممارسة سلطات الشرطة بدرجات متفاوتة من الحذر ، إذا كانت أصغر شرارة بين الأقرباء توشك أن تسبب نزاعاً ؟ فلنقسم العالم بين القوى الحرارية ـ النووية ! تتأكد وجهة النظر هذه بشكل حاد وحاسم وفظ بعض الشيء في « نظرية بريجنيف » التي تعمد القيادة الآحادية التي يضطلع بها الكرملين على كل الإشتراكيين والأصدقاء ، « بالأممية البروليتارية » . إن وجهة النظر هذه قائمة أيضاً في الولايات المتحدة لأسباب أكثر « تقنية » وتصنعاً . من هنا نشأت المكتبة العملاقة للفلسفات الستراتيجية في العصر النووي : كانت الدراسات الهامة في ميدان الستراتيجيا تعد على أصابع اليد قبل 1945 في الولايات المتحدة ، وهي تتخطى ، اليوم ، بصرف النظر عن درجة أهميتها ، بضعة آلاف من المجلدات ، عدا المجلات المتخصصة ومذكرات القادة العسكريين وذكريات السياسيين .

لقد تخطينا فلسفة أصبحت تعتبر مبتذلة ، هي فلسفة الردع « الثقيل » أي أن الأقوى هو الذي يردع : « إذا لمستني ، ضربت » . هذا النوع من التهديد صعب التداول وان كان ممكن الإستعمال حين يقصد الدفاع عن أرض الولايات المتحدة أو موسكو . لكن الإتكال عليه يهبط بسرعة قصوى حين

يتعلق الأمر برهانات أقل أهمية (تومبوكتو) ، وعندما يبدو الخصمان قديرين على التلويح بنفس الوعود القيامية apocalyptiques تهدف سائر النظريات المسماة « بالردع التصاعدي » أو التدريجي إلى تمويل تناوب الكل مع اللاشيء (عندها لا يبقى الهدف هو الرد بضربة واحدة فقط) فهي توصل هذا التناوب إلى الشبح المطلق للنزاعات الممكنة ـ مباشرة أم غير مباشرة (أي من خلال الحلفاء) ـ بين خصمين قادرين كليهما على أسوأ الحلول (أي معاقبة الخصم بحكم الإعدام النووي) .

هكذا يضطر الخبراء النوويون إلى إنشاء مشاريع لتقسيم العالم « تقنياً » . ثمة حكم ثنائي يرتسم في أفق الكرة الأرضية ، مبرمجاً تنظيم الصراعات حتى الصغيرة منها وغير المباشرة (الأزمات والحروب المحدودة) ، وذلك باستعمال الخطر النووي استعمالاً قابلاً للتقدير وعقلانياً . تزعم « نظريات التصعيد » إقامة سلالم للعنف المتصاعد ، علمياً ، أي بالسماح للخصم الأكثر تحضيراً بمراقبة تصاعد هذا العنف لصالحه ، معوضاً مثلاً ، عن نقص محلي « في صراع استعماري » بالتهديد بالصعود إلى درجة أعلى ، درجة حرب نووية محدودة ، يعطيه فيها سلاحه تفوقاً نسبياً . وإذا لم يستسلم الخصم « بإنصاف » ، يستطيع خصمه أن ينقله إلى أزمة ، إذ يعلن قراره بالتصعيد ، ويظهر تصميمه من خلال تصرفاته ، ويستخدم العنف أكثر فأكثر إذا بدت الوسائل الأدنى غير كافية . ولماذا لا يصعد الخصم الآخر بدوره ؟ هنا يجيب خبراء التدريجية أنه ، في القمة ، يتساوى الخطر بالنسبة للجميع ، ومن مصلحة كل الفرقاء تجنب البلبلة القيامية . هكذا نتوقف في منتصف طريق الصعود إلى الحدود القصوى وينتصر في المعركة الخصم المهيأ تكنولوجياً على أفضل وجه لخوض حروب محدودة (نووية أو غير نووية). وقد تسمح سيطرة العنف العسكري في المناطق « المعتدلة » بالسيطرة على الدرجات الدنيا ، وقد تجنب مخاطر التساوي في الإنتحار الجماعي .

تشمل هذه النظرية في الرد المتصاعد ، سواء عرفت بإسم (الولايات المتحدة) أو كانت ضمنياً من صنع (الإتحاد السوفياتي) بدائل متعددة

تستطيع كلها أن تلعب دور الخطاب الملازم لزيادة مجهود التسلح في الميدان التقليدي والنووي على حد سواء . والأهم من ذلك أن هذه النظرية تلعب دور الأزمة في تحويل الصراعات الصغيرة (وهي درجات دنيا في التصعيد) إلى صراعات كونية : يجب الا تترك القوى الصغيرة تلعب بالنار ، بل ينبغي على شرطة الدول الكبرى فرض نفسها في كل مكان . هكذا « ينتقل » أي نضال معاد للإستعمار أو أي حادث بين قوميتين إلى صراعات كامنة ، أو قائمة ، أحياناً ، بين العملاقين .

يعود الجوهر الواقعي للتعايش السلمي الحديث إلى تحويل سياسة الدول العظمى إلى سياسة نووية وهكذا تبدو الإرادة الواعية لتداول الخطر النووي على الجدول الكامل للصراعات الممكنة في نفس الوقت ، أداة لهيمنة الدول العظمى وجهازاً لبلقنة العالم . عندها ، يجد كل من المتفائل والمتشائم مادة للعناية بميوله .

البرهان بواسطة الموت

هل تكفي مصلحة العملاقين البالغة الوضوح لتفسير الإنتشار الهائل لهذه النظريات ، بجانبيها الستراتيجي (الردع) والسياسي (التعايش السلمي) ؟ لقد نسيت الكتلتان المستعدتان دوماً لاستغلال فوارقهما الأيديولوجية ، أن تتصارعا على هذه النقطة التي تنيرها شمس العقل الذري ، هي أيضاً . أنه التقاء طارىء ومفاجيء : فمنذ بروزه ، يسيطر هذا السلاح المسمى مطلقاً ، أنه مبدأ، تنظيم الكرة الأرضية ، أنه ملك الكون . ولكن الأمور ، في الميدان العملي ، ليست بأفضل أو أسوأ مما كانت عليه في المتوسط في السابق إذ تأخذ الحروب الإستعمارية والأمبراطورية مجراها ، وتطلق النار على العمال البولونيين والمجريين وكذلك على الشعب الروسي من الرشاشات ، عند حصول احداث محلية تعرف بعد خمس عشرة سنة ، وتأخذ الإبادة الجماعية أيضاً مجراها ، حيث يباد فلاحون صفر أو زنوج وحتى بيض . لكن كل شيء يبدو متغيراً في الرؤوس بعدما أعلنت الحروف الكبيرة في صحفنا ،

مع هيروشيا ، أن نهاية العالم ربما تكون غداً وأن البشرية أصبحت تقرر مصيرها ، بكل مسؤولية . فهل يكون العصر الذري هو سن الرشد ؟

« يثبت المرء حريته ، فقط في مجازفته بحياته ، (هيغل) . كان أحد الفلاسفة قد ذكر المبدأ الذي يتحكم بمنطق الردع قبل الإنجاز العلمي للسلاح بمئة عام . وهو لم يكن فيلسوفاً عادياً ، بل أكبر المفكرين الألمان في عصره ـ عصر حروب الثورة والأمبراطورية ، والذي كان يقال عنه أنه الفيلسوف « الرسمي للدولة البروسية » بل أب الجدلية كذلك وجد الماركسية « الثورية » لم يكن المنطق عادياً أيضاً ، بل هو منطق الهيمنة على العالم .

قد لا تكفي التهديدات ، والتهديدات المضادة ، واستخدامات الخطر وافق الإنتحار الجماعي ، لإبراز الطابع الفريد للستراتيجيات النووية . لم تستنبط الحرب الحديثة تهديدات الإبادة ولا المميزات العسكرية للإرهاب المضاد للسكان . يوضح تاسيت(Tacite) في « حياة اغريكولا » للقائد البريتاني غلغاكوس Galgacus الطرق القاسية للإمبرالية الرومانية ، « حيث يدمرون كل شيء ، يسمون ذلك السلم » . يرتبط الجانب العصري الفعلي للتهديد النووي بالمبدأ الذي يطرحه ؛ يصبح التهديم المحتمل للكرة الأرضية نقطة الإنطلاق الوحيدة لتنظيمها عقلانياً . ويصبح التدمير الردعي والبناء التعايشي وجهي الخطة نفسها الهادفة إلى إفناء العالم . كان هيغل من حيث هذه الحداثة ، أول من بين هذا المنطق من خلال المعادلة التالية : تدمير = بناء .

إن محاولة القضاء على العدو والمخاطرة التي تجابه المقاتل (ومن هنا « شجاعته ») هي عناصر ترد في كل قصص الحرب منذ أقدم الميثولوجيات . كان مقدراً للقرن التاسع عشر أن يريد تحليل كل النظام العالمي انطلاقاً من هذين المظهرين كما أن قدر القرن العشرين أدراج هذه الفلسفة في الواقع مستلهماً السلاح النووي .

يلتقي فردان مستقلان (يقصد هيغل بالأفراد دولاً وحضارات كما يقصد

« الوعي ») يمكن لكل منهما أن يموت ، وكل منهما بإمكانه قتل الآخر وكل منهما يريد موت الآخر بدافع الحذر والحيطة والتحدي والسيطرة أو المغامرة . إنه صراع حتى الموت. والسيد هومن « يصمد » أكثر في المخاطرة بحياته ، باختصار : سيد من يعرف أن يموت والعبد هو من يلين لكثرة تعلقه بالحياة ، وبالتالي يغلب على أمره .لا تختلف سيناريوهات الستراتيجيات النووية كثيراً ، من حيث الجوهر ، حتى ولو لم يعترف بذلك اتباع هيغل المفتونون بالعمق النظري للمفكر المعلم ، أو المهللون « لعلم » كتاب السيناريو الأميركيين . إن للسيطرة في التصعيد الذري وللمهارة الهيغلية عنصراً مشتركاً وأساسياً : الأقوى هو الذي يتجرأ ويعرف أن يتقدم أكثر من الموت ، هذا « السيد المطلق » .

إن عصب الحبكة الهيغلية هو « البرهان القاطع بواسطة الموت » . وقد اعطى السيد هذا البرهان بالمخاطرة بحياته ، بينما تتحدد العبودية بالإمتناع عن تلك المخاطرة . ويبدو هذا البرهان حاسماً لأنه يشكل نقطة انطلاق مطلقة : لقد أحرق السيد كل سفنه وخاطر بكل شيء ولم يترك شيئاً وراءه. أما العبد الذي رغب في الهرب من هذا الإنكار المطلق فقد خضع له رغماً عنه : لقد اصبح ملكاً للسيد ، وفقد كل شيء ، لأنه أراد الإحتفاظ بشيء ما . أي أنه بالمنطق الردعي : ظهر السيد « قابلاً للتصديق » وذلك « بسلوكه المجازف » ، بعكس العبد الذي بدا شديد التعلق بخيرات هذا العالم ، وهو على حافة الهاوية ، لقد رفض ، بشكل من الأشكال ، « أن يموت من أجل دانتزيغ » .

هذه البداية المطلقة هي بداية نظام . السيد يتمتع والعبد يعمل وكلاهما يحول العالم ، ويؤنس الطبيعة ويطبع الإنسانية . ويبقى السيد هو الآمر في هذه المجموعة . وبعكس الروايات الحسنة النوايا « لجدلية السيد والعبد » الموجهة لأبناء مريم ولينين ، لم يكن هيغل أبداً على هذه الدرجة من الغباء ليؤكد أن العبد يتحرر « بالعمل » . طبعاً . أن السيد الذي يكتفي « بالإستمتاع » دون التثقف ، يصبح احمقاً وعبداً للعبد . أما العبد الذي يكتفي بالعمل يصبح « عنيداً » « وأبلهاً » ، و« يسكن في أحشاء العبودية » ،

وهو لا يصبح أبداً سيداً للسيد ، بل يقع في ما سيحتقره ماركس بدوره ، بقوله أنه «خبلية المهنة » .

هكذا يكون النظام مطلقاً في اندفاعة هذه البداية المطلقة في أفق الموت . وتحكم الدول الكبرى العالم محظرة على صراعات الأمم الصغيرة الانتكاس وفارضة التعايش بحراستها .

وبفضل عمل العبد ، قد يختفي السيد المتوحش أمام السيد المثقف ، كان الأول يستمتع ، ويشبع رغباته حيوانياً متحولاً بذلك إلى « عبد للعبد » أما الثاني فكان « يطبق على نفسه ما يفعله بالعبد » . يعمل واعياً وفي العلن ما يعمله العبد معانداً في الخفاء . وبينما يعمل العبد « بقلق » ، يثقف السيد القلق (أي الفسادالكوني ، عامة) ، وهو أول من يخرج من علاقة السيطرة . العبودية .

ويتخلص العبد من ذلك بتحوله إلى سيد ، وليس بقلب الأسياد ؛ فيدخل تجمعهم ويقتسم وإياهم أسس سيادتهم وأسس قلقهم . وعليه أن « ينغمس في الخوف المطلق » وأن يتخطى « القلق العابر » كأن يفقد شيئاً أو آخر ، أو حتى حياته . وليس عليه أن يشيد بعمله كمحرر بل أن يفتته ويكتشفه « مفتتاً » : «إذا لم يهتز كل محتوى الوعي الطبيعي. . . يكون المعنى الحقيقي هو ببساطة عناداً ، وحرية ما تزال باقية في أحضان العبودية » . على العبد أن يعرف كيف يفقد عمله وحياته : عليه أن يخرج من العبودية من حيث دخل . كان قد رفض أن « يطرد من نفسه كل كائن مباشر » وقطع النضال المستميت لأنه يتمسك بالحياة أكثر مما يجب . وعندما أصبح مواطناً أثبت قدرته على أن يكون جندياً وأن يصعد إلى الحدود القصوى وأن يكمل « حركة التجرد المطلقة » وأن يعطي « البرهان القاطع بالموت » أي بكلمة موجزة أن يموت من أجل الوطن . عندها أصبح على اطلاع .

« الخوف من السيد هو بداية الحكمة » بالنسبة للعبد . لكن ما هي ذروتها ؟ هل هو التحرر بالعمل ؟ بالطبع لا ! هل بقلب السيد ؟ كلا أيضاً !

إن أوج الحكمة ، في الدولة العقلانية ، تلك الحكمة التي تلغي العبودية ، هو ان للجميع سيد واحد ، السيد المطلق : الموت . أن نريد اللاشيء ونتعرف عليه هو أن نعرف الموت ونريده .

هذه هي الفرضية الشائعة لدى هيغل ولدى رسل الردع : تتثبت كل سلطة بالتدمير ، قبل أن تتثبت بالتعمير ؛ تكمن القوة خاصة في الإرهاب . تحسب مصورات التعايش المنمقة جيداً في الأفق الأبيض للكوارث المخططة . زينت مجلة العلماء الذريين الأميركيين (atomic seicutists) اسمها طويلاً بساعة حائط يشير عقربها الصغير إلى منتصف الليل ؛ أما العقرب الكبير فيقترب أو يبتعد من الأول وفق تقلبات الحياة الأولية باقترابها من نهاية العالم أو ابتعادها عنها . تبدأ تحليلات التعايش السلمي حيث تنتهي براهين الخبراء إلى الصفر ، ويقيس العقل الحديث السلم والحرب بنفس الطريقة ، إنما بالمقلوب .

ليس التعايش الردعي إلا الطريقة الحديثة لطرح مسألة السلطة وحلها . يتحدد فيها الناس بخضوعهم لخطر الموت في عزلة « ذرية » ؛ وتنتظم السياسة فيها كاستعمال لهذا الخطر ، يعلن أسياد زمننا وهم يقيمون في قلعة مطلقة ومحاصرة على حد سواء : « أنا أو البلبلة » . إن آخر صورة يتركها لنا فاغنر Wagner عن « أولمب » القرن التاسع عشر هي صورة فوتان Wotun وهو يجمع الآلهة حوله ومن حولهم حزمات حطب جاهزة لحرق كل « الـوالالاه » (Wolhalla) وسكانه الألهيين . إن الآلهة الحديثة تتعايش غسقية .

التعايش الفائض

ينظم التعايش السلمي ، بمعانيه المختلفة ، لعبة وحدات محددة بأحكام ـ الدول ـ انطلاقاً من مكانها المرتفع أو المنخفض في نظام القوة النووية . من يتمكن من إبادة نفسه وإبادة الآخرين معاً هو الذي يسيطر : تنحصر اللعبة بالمواجهة بين دول رهانها الرئيسي هو المحافظة على وجودها . ضمن هذه

الحدود ، يكون الرهان حقيقياً نسبياً لأن أي دولة حديثة ، مهما كانت متبجحة ومهما كانت توتاليتارية أو دكتاتورية ، تتردد عندما يترآى لها فناؤهـا المحتم : « يستطيع المرء أن يكون بمأمن من كل ما هو غريب عنه ، لكن الموت يجعلنا كلنا نحن البشر نسكن مدينة دون أسوار » . (أبيقور) . إن الجديد المطلق أي التحول الخارق الذي أحدثه السلاح الحراري ـ النووي هو أن نظهر لأكثر الناس تشبثاً برأيه أن المسلمة التالية هي ثابتة : إن الدول كلها حيوانات فانية . يمكننا من خلال الجانب المذهل لهذا الجديد قياس الدوام الذي تدعيه الدول عادة .

إذا كان بإمكان التهديد النووي تغيير ايديولوجيات بعض الدول التي لم تعد تعتقد نفسها دائمـة ، فيجـب ألا نأمـل أن ينظـم بذلك العلاقـات الدولية . يكمن أفق كارثة ذرية في المجهود التكنولوجي للتسلح الذي تقوم به منذ نشأتها الدول ـ الأمم الفتية والتي أصبحت في مدى خمس سنين تهدد أكثر وتصمد أقل من ذي قبل . في ختام ما عرف في ذلك الحين بأنه أكبر مجـزرة عسكرية في التـاريخ أي بعـد حرب 1914 -1918 ، كان فالـيري يعلن : « نحن الحضارات ، أصبحنا ندرك أننا إلى زوال » . ونعلـم البقية . يخلـق التسلح بين الدول الكبرى توازناً كوارثياً مشابهاً للتوازن الذي عاشته أوروبا بعد1918 . ليس مستبعداً أن يقنع اختراق تكنولوجي في ميدان التسلح احدى الدول العظمى بأنها تتمتع بالأفضليات نفسها التي كان يتمتع بهـا هتلـر في أوروبا السيئة التجهيز قبل1940 . أن سلوك البشر الذين يدركون أنهم إلى فناء هو أن يجرب المرء حظه وأن يلعب كل أوراقه ! أن نثبـت لهـذه الدولـة الكبرى أن المخاطر عظيمة لن يمنعها قط من الأخذ بها لقد قدم نفس الدليل لهتلر وبيكروكول Picrochole ولكن بدون جدوى .

لا يضمن السلاح الذري السلم كما لا يجعله قابلاً للتقويم ، يثبت ذلك مثل حرب فيتنام لقد دامت الحرب ثلاثين عاماً ، وسط حقبة سادهـا الـردع المتبادل والتعايش السلمي 1945 — 1975)) وقد اثبتت في الوقت ذاته ، أن الإكتفاء بالعلاقات بين الدول يجعل المتعايشين النووين غير قادرين على حصر

مدة الصراعات وامتدادها ونهاياتها . لقد تم الإختبار مرتين في المجابهة نفسها أي أن الحرب لا تواجه فقط دولاً بدول بل يجب أن تقاس من خلال الرأي العام في هذه الدول .

الرأي العام الفيتنامي أولاً ، وقد جعل الستراتيجيا الأميركية عاجزة مرتين مرة عن تعبئة « الجنوب » الليبرالي ضد « الشمال » الشيوعي ومواجهة الفيتناميين ببعضهم على الأرض بقوى متساوية ، وعاجزة كذلك عن إرهاب سكان الشمال بشكل حاسم حتى عندما قصفوا العاصمة هانوي ، لم يتخل الرأي العام عن دولته بالقدر الكافي حتى تجبر على التخلي عن تدخلها في الجنوب ، لقد اسقطت القوات الأميركية على الفيتناميين قنابل أكثر مما استعملت في الحرب العالمية الثانية كلها . لم ينفع هذا التفوق في ميدان التهويل الجوي والإنتقام والتهديد بالإبادة ، لم ينفع في شيء . هذا دليل حي على أن السيطرة على الخصم في درجة من درجات التصعيد لا تلزمنا أن نحسم صراعات الدرجات الدنيا من خلالها ، بعكس ما يوحي به خبراء عديدون . لا يحكم الحرب على الأرض التهديد وتنفيذ التهديدات بالإنتقام الجوي الذي يقارب الإبادة . فثمة استقلالية نسبية لكل نوع من أنواع الصراع ، إذ أن الدول التي تتجابه مباشرة ، أو من خلال الحلفاء ، لا تسيطر على المقاتلين سيطرة مطلقة ، فالمقاتل الذي يخاطر بحايته في الأدغال لا يتأثر ، بشكل حاسم ، بقصف هانوي ، ولا الفلاح الذي يسوق السلاح . بالطبع كان يمكن للسلطة الحاكمة في هانوي أن تهلع ، لكنها كانت تملك مخارج اخرى ، كان بوسعها لو أحرجت ، إن تخلي عاصمتها للقنابل موضحة أن حكمها لا يسيطر على حجارة بل على رأي عام عسير الإنهيار . وتجاه تهديدات خصم متفوق بتقنيته وقدراته المميتة ، تلجأ الدولة الى انكار عزلتها عن العالموتلتجيء إلى الرأي العام وتبشر بالحرب الشعبية وحصار المدن بالأرياف ، والسماء بالأرض . وبمجرد أن يحتل جانب الفضاء يحفر الجانب الثاني حفراً أكثر فأكثر عمقاً . فمن يفقد مودة السكان ، المستمرين على قيد الحياة ، بدرجة أقل هو الذي يكسب !

أما الحد الثاني الذي صادفه الخبراء الأميركيون ـ ولم يكونوا قد توقعوه قط ـ فيرتبط بالرأي العام في البلد المتفوق تكنولوجياً . كان بوسع حرب فيتنام أن تستمر لعشر سنوات أخرى لو لم « تكسر » الشبيبة الأميركية الجيش الأميركي من الداخل ، بجعله عاجزاً ، عجزاً مطلقاً ، عن تحمل المهام التي يوكلها اليه قواده ، وذلك بمعونة القيثارات والقنابل التي تلقى في قاعات طعام القواد ، وبقوة المخدرات ومواعظ الكهنة والحاخاميين ، والقساوسة ، بالمظاهرات الطلابية وتمرد الزنوج ونزاهة بعض الصحفيين . تلك هي أقوى تعبئة للرأي العام ضد السياسة العسكرية للحكومة ، عرفها بلد ما غير مفكك من الداخل بهزيمة (كما كانت روسيا القيصرية عام 1917) . تلك هي المرة الأولى التي يصبح فيها جيش ما ـ أحدث جيش في العالم ـ غير قادر على الاضرار ، بسبب من يقاتلون فيه لا بسبب من يقاتلونه .

تطلق النار على بعض الجنود في الخنادق سنة 1917 وتتخذ الحركة الدادائية موقفاً : لم تصادف الحرب العالمية الأولى سوى معارضة أقليات صغيرة جداً بينما كان الرأي العام شريكاً في المذبحة المروعة بكثرة وكثافة . لقد ظهرت المعارضة للحروب الإستعمارية في العواصم الأوروبية متأخرة وخجولة . كانت شبكات الفرار في فرنسا أبان حرب الجزائر أضعف بكثير من حركة التمرد الهائلة التي اجتاحت ملايين الشبان الأميركيين إلى أن فرضت نفسها على الناس وأوقفت الحرب (ليس دون أن تضع حداً لولاية رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة ، وهذا مجرد تفصيل) .

لا نتصور هنا حركة لا تقاوم ، تضمن السلام بقدرتها على تجميد كل اعتداء عليها . يكفي أن نعترف أن وهم التعايش بين الدول دام كثيراً ، وأن معطى جديداً يفرض نفسه الآن : ليس الرأي العام ، بالضرورة ، هذا الشيء ، المرن في الدولة والذي تمكن تعبئته إلى ما لا نهاية . تستطيع قدرة الرأي العام على التعبير والمعارضة ، في كل الميادين ، ترجيح الكفة وبشكل حاسم .

يضمن التعايش بين الدول الكبرى لكل منها حق قهر المواطنين ، كيفما

طاب لها ، لقاء وعد بعدم التدخل في الشؤون « الداخلية » للجانب الآخر ، ولا يكتمل ذلك دون صراعات حول تحديد الحدود المتنازع عليها بين الفريقين . و تشعل هذه الصراعات في كل مرة خطر مجابهة اشمل لأنه بالتعاطي مع هذا الخطر ، تحديداً ، تزعم الدول العظمى السيطرة على الصراعات ، صراعاتهم هم وصراعات الصغار . لقد جمد تدخل الرأي العام المعارض هذه الأساليب في بعض الحالات . يبقى أن نعرف أن المعارضة الآتية من الشرق ومن الغرب متضامنة لأنها تهدف جميعها إلى صنع أقدام من طين للعمالقة النوويين والشرطيين . لقد أعلن النضال ضد الحرب في الولايات المتحدة ، بإسم الحقوق المدنية . وبنفس المنطق ، يعلن المنشقون في البلاد الإشتراكية أنهم لا يستلهمون سوى حقوق الإنسان . الإنسان ؟ أي حقوق المحكومين ، حقوق أولئك الذين لا يتمكنون من ضمان تعايشاً لأنفسهم إلا بانتزاع حقوق كفيلة بتجميد الفورات الحربية لدى الحكام .

2 ـ أيديولوجيات التحرير

بقلم كريستيان ديكان

تنتقل القواميس ـ أحياناً ـ من « حرية » إلى « ليبرالية » ، أما « تحرير » فتبقى مهملة ؛ ذاك هو الفراغ الذي نود أن نتوجه اليه ، كما توجه إلى ملايين المعذبين على الأرض . ثمة تطور هائل « لعودة المكبوت » ، قلب مسرح السياسة الدولية رأساً على عقب ، منذ ثلاثين عام . لنقلها صراحة ، تلاقت نخبة جيل مع مذهب العالم الثالث . هذا الجيل بالذات الذي يتلذذ البعض ـ كثيراً جداً ـ بالقول أنه ضاع ، نشأ من التباس . مزج هذا الإلتباس بين التحرير والإشتراكية ، وكان العالم الثالث المكان الملائم : لقد جعلت كوبا والجزائر والصين الناس يحلمون ، ولعبت دور اختبار رورشا Rorchah .

لكننا نود هنا الخروج من الغرب ، محاولين القيام بمقاربتين : احداهما « خارجية » تود وضع معالم القوة التي تملكها أسلحة النقد في العالم الثالث . وتزعم الثانية العودة في الختام إلى مشكلة الدولة وهي غير واردة في التحرير . عندما نقرأ هيغل ، نتساءل إذا كانت الاستقلالات لا تبني دولاً ، بالإستناد إلى غياب المجتمعات المدنية .

يبرز العالم الثالث في الشبكة السياسية من خلال نضالات التحرير التي يخوضها . ولقد صنعت هذه النضالات نظرياتها : فهناك غيفارا وسيزير C'esaire وسنغور وفانون وماو ، الذين أتوا بنتائج عملية . لكن واقعاً فرض نفسه ، كثيفاً وعنيفاً . وعلى نقيض العقائد الثورية (إذا لم تكن هذه العبارة فرس نهر بخاري) ، بقيت البروليتاريا في العالم المصنع لا مبالية تجاه

ثورات المستعمرين . فلم يساند العمال الإنكليز الماوماو ، ولا الهولنديون ساندوا الملقيين ، أما تحركات بعض المجندين الفرنسيين المناهضين لحرب الجزائر ، فبقيت محصورة بأقليات صغيرة جداً .

لقد بدا مخطط الثورة المستمرة الذي بلوره تروتسكي غير قابل للتطبيق في العالم الثالث. دعونا نذكر بتحليل تروتسكي : «في الثورة الروسية، استولت البروليتاريا الصناعية على الميدان نفسه الذي لعب الدور الأساسي في الديمقراطية النصف ـ بروليتارية للحرفيين والمعدمين في القرن السابع عشر . . . وكان الرأسمال الأجنبي قد جمع حوله جيش البروليتاريا الصناعية دون أن يفسح المجال للحرف كي تنشأ وتتطور . وكان من نتيجة ذلك الوضع انه عند حدوث الثورة البورجوازية ظهرت بروليتاريا صناعية ذات نمط اجتماعي عالٍ جداً ، كقوة رئيسية في المدن » لقد دمرت هذا المخطط هذه القوة الرئيسية الغائبة في العالم الثالث .

إذا كانت السيطرة الإستعمارية قد أنهيت في كل مكان تقريباً (لازالت هناك جيوب مهمة في أفريقيا الجنوبية) فلم يرافق هذه النهايات قلب للسلطات . ولم تتزعزع أسس تلك السيطرة قط . لقد تمكن الفلاح الكوبي والأنصار الفيتناميون والطالب التركي الذي كان ينتفض ضد مندريس من أيهام الناس ـ لمدة من الزمن ـ أن العمل السياسي كان ذي طابع يميز العالم الثالث . كان هذا الأمل يقوى بقدر ما يترافق بأهمال الجماهير الغربية له .

ولكن إذا كانت اليقظة مفاجئة ، فليس المقصود هو الوقوع إلى الجانب الآخر من الحصان ولا طمس التغيرات الفعلية بحجة أنها ضخمت . ففي ثلاثين عام، انقلبت[1] الجغرافية السياسية للعالم . تفكك العالم الذي كان شبكة منسقة ، متحولاً إلى تنظيم ذي أقطاب أكثر تعقيداً . لكننا لن نتمكن من تجنب الحقيقة البشعة : لماذا انهارت الثورات الوطنية أو تحولت إلى سلطات بيروقراطية ، بعدما هزمت الأعداء الخارجيين؟ لن نتمكن من الإجابة ملياً على

(1) يتكلم الكوبيون ، في انغولا ، عن بلاد افريقية لاتينية

هذا السؤال ، لكننا سنحاول تتبع الشبكات التي تتيح لنا تحليل هذه التطورات . لم تطرح مشكلة التحكم بالإنتاج ، وهي مشكلة واقعية للغاية ، في أي مكان . ثمة فكرة اساسية تبدو مشتركة بين كل أيديولوجيات التحرير : ليس ثمة الف طريقة لتطوير الإنتاج والإنتاجية والخروج من التخلف . ثمة طريقتان اثنتان : الطراز الرأسمالي أو طراز العقلانية البيروقراطية . في الحالة الثانية لعبت الأيديولوجيا البولشفية ، بأشكال متفاوتة الحدة دور المثال . لكننا نعلم اليوم انها شاركت ، هي أيضاً في الإعتقاد بأن الرأسمالية هي النظام « الوحيد » للإنتاج الفعال والعقلاني (يكفي للإقتناع بذلك أن نقرأ لينين الذي يشيد بتنظيم البريد والبرق والهاتف(1)) . ولقد عارض بعضهم هذه « البداهات » . ولكنهم مزجوا ، بترددهم أخطاء المعارضة العمالية الروسية ، في انتقاداتهم للطبقية ، بين الإختصاصيين والتقنين (الضروريين) ومدراء الإنتاج الذين لا يخضعون للمراقبة ، وذلك باتهامهم جميعاً بالفساد. أفسح هذا النقد المعمم المجال واسعاً لرسل « الفاعلية » و « العقلانية » أي لرسل الطراز الموروث .

تسيطر الدولة ، هذه الأيام ، في كل مكان ، حتى ولو تباهت هنا وهناك بكونها « دولة الشعب بكامله » . وتتنوع اشكالها بين أن تسمى ديكتاتورية البروليتاريا (حتى لو استبدلت هذه الكلمة ، غالباً ، بكلمة هيمنة) ، أو انتقالية تسير نحو الإشتراكية . ولم تضمحل في المجتمعات المدنية في أي مكان من العالم . أما الفلاحون فقد قاتلوا من أجل الأرض والكرامة والحرية والسيادة . وغداة النصر بدأت العقبات التي لم تكن مرتقبة في العشية .

غيرت نظريات التحرير خريطة العالم لكنها بقيت ، على العموم ، وريثة فكر القرن الثامن عشر الحقوقي ـ الفلسفي . إن شرعة حقوق الإنسان لعام1793 هي التي نصت على أن السيادة تكمن في الشعب وانها واحدة غير قابلة للتجزئة أو التقادم أو التصرف . يترك هذا التكثيف مكان مشكلية

(1) كستورياديس : التنظيم الخيالي للمجتمع ـ دار « سوي » ـ1976

السلطات وشكلها في الدولة فارغاً . أما غياب التناقضات في صف الشعب وهو الذي شكل قوة النضالات التحررية ضد الإستعمار فقد سبب ضعف الأيام التالية التي خففت من غلوائها . لكن ، لنضع الأفكار التحررية في إطارها التاريخي .

الإيديولوجيات الإستعمارية : تبرير ونقد

يبدو نزع الإستعمار الإستعمار بمثابة رفض ، بمثابة رفضية ، وهو يواجه الحدث الإستعماري في تبريراته . نشأت الولايات المتحدة من معارضة الهيمنة الإستعمارية الإنكليزية ، لكن دعونا نستعيد التاريخ . لقد قسم البابا اسكندر السادس ، من خلال براءة عام 1493 ، العالم بين اسبانيا والبرتغال « لكي تسيطر على الأمم البربرية وتعيدها إلى الإيمان » . نحن نعلم احتجاجات لاس كاساس Las Casas والنزعة المناهضة للإستعمار لدى مونتين Montaigne . ويحلم رابليه باستعمار إنساني ، لأن تلك الشعوب تشبه اطفالاً ولدوا حديثاً ومن الواجب ارضاعهم الحليب ، وهدهدتهم وإسعادهم » .

يعارض ديدور حق المحتل : إذا نزل تاهيتي إلى شواطئنا ونقش على إحدى صخورنا أو على قشرة إحدى اشجارنا : هذا البلد ملك لسكان تاهيتي ، ماذا يكون تعليقك ؟ » . أما الكتاب المقدس لنوع من انواع مناهضة الإستعمار فهو « التاريخ الفلسفي والسياسي لمؤسسات الأوربيين وتجارتهم في الهند » ، لمؤلفه رينال . فهو عنيف جداً من جهة ، إنه قانون القرن الثامن عشر : « لقد حملت السلاح ضدكم (البرابرة الأوروبيون) وغمست يدي بدمائكم » ، إلا أنه يبقى من جهة ثانية مؤيداً للتغلغل السلمي للغرب .

إنه من أنصار الغاء العبودية تدريجياً ، انطلاقاً من ولائه لمسيحية القرون الوسطى . وهو بذلك يتقدم الليبراليين مناهضي الإستعمار أمثال الفيزيوقراطيين ، إذا أن الليبراليين مقتنعون بعدم فائدة المستعمرات . لم يأت

استقلال الولايات المتحدة بضرر على بريطانيا العظمى . يواجه الليبراليون التبعية بمنافع الحرية التجارية ، اقتفاء لأثر أدام سميث . هكذا يعترض الليبراليون المناهضون للإستعمار على توسيع غزو الجزائر .

يتأرجح كل شيء في السبعينات من القرن الماضي (كومونة باريس والأزمة الإقتصادية وتغير المبادلات الدولية) مع ظهور استعمار خالص وقاسي يدعم مفهوم الأمبراطورية . عندها تنشأ نظرية توسعية تقنع أوساط رجال الأعمال التي كانت لا تزال منقسمة وحذرة ، ويصل جول فيري وديسرائيلي وليوبولد الثاني وتيودور روزفلت إلى التقسيم الكبير .

يبرر هذا الاستعمار نفسه بالداروينية ، كما لاحظ ذلك فرنسوا جاكوب[1] « استُخدم التطور البيولوجي كمثل ساطع على التنافس الحيوي وانتصار الاقوياء على الضعفاء والاسياد على العبيد ليكون اساساً تفرضه الطبيعة لقيام الفوارق الاجتماعية او العرقية ولتبرير انحرافاتها الأسواء » . . . هكذا يقدم الإستعمار نفسه على أنه واقع طبيعي وسيرورة لتصفية لا بد منها ، هي تصفية « المتخلف » على يدي المتطور ، وهي سيرورة لا بد أن تأتي بالكسب على البشرية جمعاء ، ويحصل ذلك دون أن يهتم الإستعمار كثيراً للأمر . ينبغي على الاعراق المتفوقة أن تظهر « حقها تجاه الاعراق « الأدنى » . هذا واجب ، على أى حال . فى فرنسا ، تواجه الأيديولوجيات الجمهورية الملكية بتوسعيتها ، إذا كانت الملكية تضحي بمستعمراتها . أما الحملات المزمعة فتبررها القواعد البحرية الخارجية ودورها الستراتيجي . لكن المستعمرات تظهر على أنها تثميرات ممتازة لرؤوس الأموال ، وفى الوقت نفسه ضمانة ضد الإضطرابات الإجتماعية ، إذ أنها تمنح مجالات للهجرة .

يتحدث ماركس قليلاً عن مسألة الإستعمار ، هذا إذا استثنينا أيرلندا . وهو ، كوريث لفلسفة التاريخ الهيغلية ، يسجل تحليلاته بهدف التقدم الآتي من الشرق و الذي يصب في الرأسمالية الغربية . يحمل الإستعمار المرتبط

---

(1) La Logique du vivant , N . R . F .

بتوسع الرأسمالية ـ استغلال المواد الأولية والموارد الزراعية ـ في الوقت ذاته « حضارة » ليس ما يشغله ، في « الرأسمال » ، في ما خص « التراكم البدائي (النظرية الحديثة في الإستعمار) بل السر الذي اكتشفه الإقتصاد السياسي للعالم القديم في العالم الجديد . . . » .

كتب انغلز في « النجمة الشمالية[1] » بتاريخ 22 كانون الثاني 1848 :
« كانت مقاومة البدو يائسة ، ولكن رغم أن الأسلوب الذي قاد به عسكريون شرسون أمثال بوجو الحرب ، كان أسلوباً مرفوضاً ، فاحتلال الجزائر هو عمل هام ومؤات لتقدم الحضارة . . . في النهاية ، أي أن البورجوازي العصري بحضارته وصناعته ونظامه و « تنويره » هو رغم كل شيء أفضل من السيد الإقطاعي أو قطاع الطرق وأفضل من الحالة البربرية للمجتمع الذي ينتمون اليه » . إن انغلز هنا في خط « بيان الحزب الشيوعي » الذي يشدد على الدور البالغ الثورية للبورجوازية .

إذاً ، يحطم الإستعمار الحدود ، مرغماً الآخرين على أن يصبحوا بورجوازيين أي متمدنين . وماركس هو الذي لاحظ أن السيطرة البريطانية على الهند « تحطم هيكلية المجتمع الهندي ، لكنها من جهة ثانية تخلق شروط مرحلة جديلة ، بتوحيد البلاد وتطويرها » وهكذا « ان رخص المنتجات هو مدفعية ثقيلة تتيح مهاجمة كل الأسوار الصينية بعنف وترغم البرابرة الأكثر عناداً في عدائهم لكل غريب على الإستسلام » . وذلك لأن البورجوازية اخضعت الريف لسيطرة المدنية ، وأنشأت مدناً ضخمة وزادت أرقام سكان المدن بشكل هائل بالنسبة إلى الريف ، وانتزعت قسماً مهماً من السكان من خبل الحياة الحقلية (نلتقي هنا احتقار الفلاح وهذا أرث هيغلي آخر .)

تهتم الأممية الثانية قليلاً بمسائل الإستعمار ، حتى أن برنشتاين سيذهب إلى حد تبريره ولم تعر روزا لوكسمبورغ سوى اهتماماً ثانوياً « للشعوب » لأنها تبقى وفية لأولية نضال الطبقات البروليتارية . وهي ، في مخططها ، تماثل بين

---

(1) يذكره غاليسو وباديا : الماركسية والجزائر UGE .

صراع الطبقات والنضال ضد الأمبريالية . لكنهـا ، إذ تحافـظ على أولـوية الإنتـاج ، تركز تحاليلهـا على التقـطيع اقتصـاد طبيعـي/ اقتصــاد تجـاري ورأسمالية . إذاً ، هناك عامـلاً خارجياً يضمـن تطـور الـرأسمالية : خراب الإقتصاد الطبيعي ونهب المجتمعات اللارأسمالية . لكنها تبشر أيضاً بتكوين طبقة عمالية في المستعمرات ، طبقة سوف تجد لها مكاناً في جوقة البروليتاريا الأممية . وهي ، مثل ماركس تفكر بالولايات المتحدة . . . ينبغي انتظار لينين من أجل استثمار النضال الذي تخوضه حركات التحرير القومية ، ضمن خطة شاملـة . لينـين هو الـذي كتـب « حـول كـراس جونيوس » (ر . لوكسمبورغ) : « ليست الحروب القومية التي تخوضها المستعمرات وأنصاف المستعمرات محتملـة فقـط في عصر الإمبـرالية ، بل حتمية » . وكتـب سنـة 1920 : « سوف تنهار الإمبرالية العالمية حتماً عندما تلتقـي الهجمـة الثـورية للعمال المستغلين والمقهورين في كل بلد مع الهجمة الثورية لمئات الملايين من الناس الذين كانوا حتى اليوم خارج التاريخ » . إذاً ، تدعو الأممية الشيوعية « عبيد الإستعمار في أفريقيا وآسيا » إلى التمرد . ان مساندة الشعوب المناضلة شرط للإنتساب إلى الأممية الثالثة . كانت الحـرب العـالمية الأولى قد فتحـت ثغـرات في البنـاء الإسـتعماري ، لكن في الثلاثينـات ، انتعشــت الفـكرة الإستعمارية من جديد . دعونا نتـذكر المعـرض الإسـتعماري سنـة 1931 ، ولنعيد قراءة (جيد) وخاصة (هربارت) Herbart . ولـكن ربما كانـت سيلـين هي التـي وصفت العالـم الإسـتعماري على أفضـل وجـه . يصف باردامو ، بطل « رحلة إلى آخر الليل » ، عالـم « الزنوج وصغار البيض » في تلك الحقبة : « لا يعمل السكان الأصـليون ، إجمـالاً ، إلا تحـت التهـديد بالهراوة ، فهم يحتفظون بهذه الميزة بينما يسير البيض الـذين طورهـم التعليم العام ، دون هراوة .

« المدير » يوم وصلت إلى توغو الصغرى ، منذ ثلاثـين عام ونيف ، لم يكن هؤلاء القذرين يعيشون إلا من الصيد البري وصيد السمك والمذابح بين القبائل ! . . .

اليوم لم يعد ثمة انتصارات ! نحن هنا ! لا قبائل بعد الآن ولا مظاهر خادعة ! ولا تعاظم ! بل أيد عاملة وفستق ! الى العمل ! لا مجال للصيد بعد لآن ! ولا للبنادق ! بل فستق وكاوتشوك ! . . . لدفع الضريبة ! (. . .) تفوح من الزنجية رائحة البؤس ورائحة غرورها المستمر وانصياعها القذر ؛ هي اجمالاً مثل الفقراء عندنا لكن أولادهم أكثر وغسيلهم أقل ، كذلك النبيذ الأحمر من حولهم . . .

« كان البيض المترفون في (حصن غونو) لا ينفكون يلعبون وهم يشربون بكثرة ويتثاءبون ويتجشأون عندما يحلو لهم . كانوا يدفعون مئتي فرنك للحصول على معلمة بنات(Patronne) الهوى الجميلة . وكانت سراويلهم تسبب لهم ، للفكهين بينهم ، صعوبة لا توصف من أجل التوصل إلى حك انفسهم ، وحمالة البنطال لا تنفك تفلت عند ذلك . . . » وهكذا كانوا يمرون أمام بعضهم البعض خلال اسابيع وسنوات حتى توصلوا إلى عدم التطلع إلى بعضهم ، من كثر ما تعبوا من التكاره . . .

« كانت المقبلات تدوم ثلاث ساعات كاملة . يتكلمون فيها دائماً عن الحاكم ، محور كل المحادثات ، ثم عن السرقات المحتملة وغير المحتملة ، وأخيراً عن الجنس . . . أي الألوان الثلاثة للعلم الإستعماري . كان الموظفون الحاضرون يتهمون ، دون مواربة ، العسكريين بأنهم تمرغوا في الزنا واستغلال السلطة ، لكن العسكريين كانوا يردون لهم الصاع صاعين . أما التجار فكانوا يعتبرون كل هؤلاء النفعيين منافقين وسارقين خبثاء » .

تجاه هذه العقائد ، يصبح ملحاً أن تجمع حركات التحرير كل الشعب من حولها . لكن جبهة النضال المشتركة تفسر ـ غالباً ـ ضعفها وغموضها الإجتماعي والسياسي .

جبهة موجودة في مكان وغير موجودة في أي مكان

لا معنى لحرب العصابات ، وهي ستراتيجية التحرير وتكتيكها ، إذا لم تكتسب المساندة الشعبية . تستطيع مساندة السكان ، وهي وحدها سلاح

الضعيف ضد القوي ، ان تتيح لها نهاية لا تنقرض فيها . فهي تملك قوة المكان والزمان . لا يقول المقاتل : « هذا صحيح لأنني أموت » بل يهرب ويكسب الوقت . لكن هروبه فاعل وهو إمكانـية العودة وقلب الأوضاع . على حرب العصابات وهي قوة الضعيف أن تتخلص من قوانين المعلم .

كان ماو أول معاصر أبرز هذه الظواهر ، حتى وإن استطعنا أن تعثر له على اجداد عظام. إن روبن هود وماندران وكرتوش والمقاومة الإسبانية وبانشو فيلا والمقاومـون البـرازيليون موجودون في كل ذاكرة (يحلل هو بسبـاون[1] الظاهرة الإجتماعية لقطاع الطـرق) ، ذلك أن هذه العصابـات بإمكانهـا أن تفشل فتنتهي في الإجرام البحث أو أن تتحول إلى مقاومة شعبية . كانت هايتي أول مستعمرة حررها الأنصار (1803) الذين سوف يستخدمهم بوليفار ، إلا أن كل قوى المقاومة سحقت قبل نهاية الحرب العالمية الثانية تقريبـاً . هكذا تشع انتصارات ماو وديان بيان فو فيما بعد ، كمنارات حتى لو حجبت هذه المنارات ـ المحرقة جداً ـ بعض الخيبات (الفيليبين ، ماليزيا)

ما هي مبادىء حرب العصابات ؟ كتب سون تسو (القرن السـادس قبل الميلاد) الذي يذكره ماو وجياب : « العمل الممتاز هو تجميد العدو دون معركة »[2] . أما في الغرب ـ على الأقل ـ فإن كلوسفيتش « عن الحرب » هـو الذي أبرز المبادىء الفعالة للحرب الشعبية :

1 ـ ينبغي استـدار الحرب نحو داخل البلاد .
2 ـ ينبغي أن لا تحسم كارثة واحدة مصيرها .
3 ـ يجب أن يشمل مسرح الحرب مساحة شاسعة من الأرض
4 ـ يجب أن تتلاءم الإجراءات المتخذة مع الطابع الوطني .
5 ـ يجب أن تكون البلاد مقطوعة أي صعبة الولوج كأن تكون جبلية أو حرجية أو أن تتخللها المستنقعات أو مرتبطة بنمط زراعي خاص .

---

(1) هو بسباون : قطاع الطرق ـ ماسبيرو
(2) راجع خطة المحاصرة المتبادلة في لعبة الغو .

يجب أن يضاف إلى هذه المنطلقات ، الزمن الـذي هو أسـاس حرب العصابات ، إذ أن « مجرد مدة الحرب تكفي ، شيئاً فشيئاً ، لا يصال استنزاف القوة إلى النقطة التي ينبغـي عندهـا التخلي عن الصراع . . . لا ينبغـي على الحرب الشعبية ، وهي بخارية وسائلة ، أن تتكثف(1) قط في جسم جامد ، إذ أن العدو يبعث ، عندها ، بالشكل الملائم ضد النواة ويحطمها » .

إذاً ، تتناقض الحرب التقليدية مع الحرب الشعبية . نعلم إذا عدنا إلى « النموذج الروسي » الكبير ، أن تروتسكي المعارض لحرب العصـابات كان قد تبنى ستـراتيجية حرب المواقـع . وحـالما تم التغلـب على البيض ، نزع السلاح من الأنصار ودمجهم في الجيش الشعبـي (وكان الأنصـار أقـرب إلى الفوضويين منه إلى الحزب البلشفي إذ أنهم عادة لا يقعون تحت المراقبة) . أما ماو فهو يقلب النموذج السوفياتي ويذهب من الأرياف نحـو المدن . ثم ان أنصاره هم أساس الجيش . تنتقل حرب العصابات من كونها تكتيكاً لتصبح ستراتيجية . إنما يحتفظ الحزب بالأولوية في خطته : « الحزب يأمر البنادق » . وحتى ولو كانت الثورة تابعة للمقاومة ، « تبقى السلطة في فوهة البندقية . »

ويتم استخدام المكان على أكمل وجه . كتب جياب : « ليس هنـاك جبهة محددة فهي في كل مكان ولا توجد في أي مكان » . تظهر في حرب فيتنام شبكة من الأنفاق والخنادق(2) والتحصينات الهجومية تهدف إلى الإلتفاف على العدو وشن هجوم مضاد عليه . . . إذ أن حرب العصابات تعمل انطلاقاً من لا مركزية المخططات العسكرية واستقلالية الأسلحة من الأساس .

لدينا مثل في أعمال الفدائيين المدفعيين المزودين بصـواريخ محمولـة أو بمدافع هاون (يستخـدم (غـي بروسـولي) هذه المبـادىء في « بحثـه حول اللامعركة ») . لكن مبدأ « القليل ضد الكثير » لا يطبق إلا إذا شارك السكان في حرب العـصابات . في هذه الحالة ، فقط ، يستطيع الأنصار أن يختبأوا .

---

(1) لنلاحظ أن سيلان وتكثيف هي تعابير اساسية في المسألية الإقتصادية الشهوانية لدى فرويد .

(2) يصبح تعديد الحرف ستراتجية ؛ مثل فرن (ديان بيان فو) الذي يقذف الدخان نحو الأرض .

غير أن هناك ستراتيجيتين محتملتين . بوسع الأنصار أن يحرروا مناطق معينة ، وأن يبنوا قواعد ، وأن يمسكوا جبهة (يوغسلافيا ، الصين ، فيتنام قبل 1954 ، غينيا ـ بيساو) أو أن يلعبوا على التشرذم حتى نهاية الصراع . هذا ما فعلته جبهة التحرير القومي في الجزائر ، وهي إذ جعلت البلاد غير قابلة للحكم ، لعبت على توازن المدينة والريف .

تكمن قوة النصير إذاً في تلاشيه . تقاس نسبة النظاميين الضروريين للقضاء عليه بعشرة إلى ثلاثين لكنه يحتاج إلى أرض بشرية ، فالأدغال حيادية ، بل اسوأ ، لأنها تسهل الغارات المجوقلة العدوة (ماليزيا) .

ماوتسي تونغ والستراتيجيا

لن نعرض هنا إلا المؤلفات العسكرية للذي كان يريد أن « ينير العالم كالشمس التي تشرق من الشرق » يحقق ماو ضربة قوية ضد الأورثوذكسية الماركسية التي تركت للفلاحين دور الحليف الأمين للبروليتاريا . بعد أن أعجب بثورتي 1905 و1917 ، لم يعد بوسعه قيادة ثورة بروليتارية دون بروليتاريا . ويتبنى التحقيق : « من لم يجر تحقيقاً لا يحق له الكلام » . ففي الصين لا يكفي مليونان إلى ثلاثة ملايين من العمال لقيادة ثورة بروليتارية . وإذا هو أخذ الفلاحين بعين الإعتبار ، يكون قد اعتبر العدد والإتساع الهائل للأرض التي يتوزع عليها السكان . يحدث ، إذاً ، نظرية محاصرة المدن بالريف ، وهذه المحاصرة سوف تتم بمساندة الجيش الأحمر الذي يستطيع وحده أن يخوض حرباً شعبية . وخلافاً لجيش كلوسفتش ، يخوض هذا الجيش الحرب « بهدف تعبئة الجماهير وتسليحها وتنظيمها » ، إذ أن الجيش المقاتل يجب أن يقاتل وينتج في آن معاً . في حرب الإستنزاف تلك ، ينبغي أن تستبعد كل مجابهة شاملة كي يتورط العدو وسط السكان المعادين (« السمكة في الماء ») .

من المعروف أن ماو يفرق تماماً بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة ، لكنه يشدد أيضاً على الفرق بين الحرب الأهلية والحرب الخارجية .

في حالة الحرب الأهلية ، ينتمي الجنود الأعـداء إلى الشعـب نفسـه ، وهـم ضحايا الإستغلال ، وليسوا مسؤولين عنه ، ولذلك يطالب « بمعاملة الأسرى معاملة حسنة » .

يواجه ماو الجندي غير النظامي الذي لا يأسر أحداً بالأنصار ـ مناضلين وجنود ـ الذين يخدمون قضية سياسية . يجب على الأنصار الذين ينتقون من بين الجنود غير النظاميين أن يحافظوا على الحركية . ينبغي عليهم أن يتجنبوا المجابهة وأن يتنظموا . هكذا تنظم الثورة الصينية جيشين . . الأول نظامي والثاني أنصار . لكن ، يبقى هذان الجيشان خاضعين سياسياً للحزب . إذ أنه بالنسبة لماو ، ثمة وحدة بين الحرب والسياسة . النهاية ـ بمعناها المزدوج ـ هي إبادة العدو واستلام السلطة من قبل الشعب المسلح ؛ نحن هنا بعيدون عن الحرب التقليدية حيث لم يكن الانتصار يرتبط إلا بالتكتيك . مهما كانت الحرب الثورية هجومية دوماً ، فهي تشمل مراحل مطولة من الدفاع الستراتيجي . دفاع يكمن في حالة الصين بالتضحية بالمكان من أجل كسب الزمان . من هنا ضرورة الإنسحاب (المسيرة الكبرى) أمام خصم بالغ القدرة . إذاً يحدد ماو مبدأ النضال حتى الموت(1) الذي ينبغي على الشعب أن يخرج منه منتصراً . إذ أن الشعب هو ، من نواحي معينة ، كلي القدرة ، وحتى القنبلة الذرية لا ترعبه ، قط ، فهي ليست « سوى نمر من ورق » . لكنه ليس معصوماً عن الخطأ فهو قد يخطيء ، وعندها « يختبر الهزائم » . إذ أنه في أوساط الشعب يحصل التمييز بين الصواب والخطأ . هنا يصطنع ماو مبدأ يميزه عن كل التقاليد الفلسفية التي كانت تعطي من السفسطائيين حتى هيغل ، الأفضلية للمثقفين ، للذين يحسنون التحدث في التبرير . فهو سيخوض نضاله مع الفلاحين المبعدين ، لأن « عين الفلاح ترى الصواب » .

تحدثنا هنا عن مباديء ماو فقط ، وليس عن الصين التي حلت مكان الإتحاد السوفياتي في ميثولوجيات التحرير . لقد تهشمت هيبة الإتحاد

(1) راجع ا . كلوكسهان : حديث الحرب . U .G .E

السوفياتي قليلاً بعد قمع حركات التمرد المتتالية التي قام بها العمال في أوروبا الشرقية . ولكن ، إذا كان صحيحاً أن الثورة التي أطاحت بحكم تانغ كاي تشيك في عام 1950 قد دحضت عدداً كبيراً من التحليلات التقليدية ، فصحيح أيضاً أنه قد أضيف إلى النواة الأساسية للثوريين المحترفين (المدربين في موسكو) ، كوادر فلاحية وآلاف الطلاب وبعض البورجوازيين المفتقرين الخ . خاصة منذ بدء الحرب . في هذه البوتقة ، نشأت طبقة قيادية جديدة ، مساواتية منسجمة ايديولوجياً ، سوف يكون سلاح المشاة عندها جماهير الفلاحين . عندما كان شانغ كاي شيك في فورموزا ، انضم كل القواد تقريباً وحوالى عشر ملايين موظف إلى الدولة الجديدة . . .

جياب ،هوشي منه وجبهة التحرير القومي

جياب مدين لماو ، لكنه من الجدير أن نضعه في موقعه ضمن الإطار الفيتنامي الخاص . دعونا نذكر أن هذه الأرض كانت مكاناً للمقاومة الشعبية منذ 1858 ، وأنه في عام 1916 شارك الملك الوطني (دوي تان) في مقاومة النظام الإستعماري ومن أجل ادراك رهان هذا النضال ، ينبغي قراءة بالاز Balazs [1] من جديد ، وهو يؤكد أن « الفلسفة الصينية هي فكر سياسي قبل كل شيء » . ويذكر دولوز وغاتاري[2] : « عندما يسأل بالاز : لماذا لم تنشأ الرأسمالية في الصين ، في القرن الثالث عشر ، حيث كانت كل الشروط الخاصة والتقنية تبدو متاحة ؟ يكمن الجواب في الدولة التي كانت تغلق المناجم حينما كانت تقدر أن مخزون المعادن أصبح كافياً والتي سيطرت على احتكار التجارة سيطرة دقيقة » ثمة شيء ما حيك في هذا المجال ، لا بد لنا أن نسمي ماورائية الدولة ، في غياب تعابير اخرى ، أنها ما ورائية اساسية لفهم التغلغل الذي حصل فيها بإسم الماركسية .

---

(1) البيروقراطية السماوية .N.R.F

(2) الإنسجام العقائدي في كمبوديا 1975 -1976 . يثير الرعشة . كان الحزب ينظم الجنس .

في عام 1920 ، ينتسب هوشي منه إلى الأممية الثالثة ، لكن العم هو سيدفع فدائييه نحو الإعتدال ، وهم ليسوا سوى حفنة في 1941 بالنسبة للجيش الياباني . ويعود الفضل إلى ما يسميه « تناقضات الامبريالية » في نهاية الحرب ، بدفع « هو » لاتخاذ قرار الثورة ، في الوقت المناسب . وضمنت له ثورة هانوي السيطرة على هوي وسايغون . لكن النظام العالمي ، اعيدت صياغته في بوتسدام (تموز 1945) وساعد البريطانيون الجيوش الفرنسية من أجل استعادة المدن من الثوار .

بدأت في ذلك الحين ، معركة طويلة ، تدور حول شرعية السيادة الفيتنامية ، تلك الشرعية التي كانت ضعيفة جداً قبل انتصار ماو في بيكين .

لذلك سوف تدوى ديان بيان فو كالرعد . هذا الإنتصار لشعب صغير هو انتصار الشعب . ومنذ ديان بيان فو ، تصبح هذه الحرب الشعبية حرباً مثالية .

كتب جياب : « لقد خلقنا هذه الحقيقة التاريخية الكبرى : أن شعباً مستعمراً وضعيفاً ، إنما متحداً في النضال ، وإذ ينهض للدفاع عن استقلاله وعن السلام ، بتصميم ، لهو قادر تماماً على قهر القوى العدوانية لدولة كبرى امبريالية » .

أثرت ديان بيان فو في الرأي العام الفرنسي الذي أدرك بطلان تلك الحرب ، كما أثرت في غيفارا الذي اقترح « خلق » فيتنامين أو ثلاثة أو أكثر » . يستشهد جياب بالرأسمالية التي تعزز حفاري قبرها هي ، لكنه يعاود تفحص العلاقة حرب/ سياسة . يردنا نضاله إلى العنصر السياسي لا الأخلاقي . وهكذا يجب على جبهة التحرير القومي أن تداري الطبقات الوسطى ، وهي لن تجتاح قرية قط قبل تحضير قاعدة سياسية فيها .

إن هذا العمل الطويل هو الذي يخلق الطابع المميز لنضال الفيتناميين . كانت اتفاقات جنيف تنص على إجراء انتخابات في تموز 1956 ، وكان من المفترض بهذه الإنتخابات أن تترجم عملياً إعادة توحيد البلاد . وأصبح لا بد

من كل مكر دييم وشعوذته ، ولكن أيضاً اخطاء الإصلاح الزراعي المفاجىء في الشمال لأحياء الصراع . ونعلم جيداً التدخل الأميركي وقصفه الكثيف الذي كان مفترضاً به أن يتوصل « إلى تركيع الفيتنام في ظرف اسابيع » ، كما ظنت هيئة الأركان الأميركية .

إلا أنه بالرغم من المقاومة البطولية ، والهجمات الناجحة مثل هجوم التات (1968) ،لم تنجح جبهة التحرير القومي قط،بإثارة سكان سايغون . فخلال السنوات الأخيرة ، تخلت جبهة التحرير القومي عن الحرب الشعبية واستخدمت وحدات كبرى مصفحة ومؤللة . ومن المؤكد ، طبعاً ، أن القصف غيرَّ الجغرافيا وخلق « مناطق مهجورة متعددة » . لكن ، عندما اطلقت الجبهة نداء للعصيان في سايغون ، لم تتمرد المدينة . ما حصل عندها هو انتصار عسكري وانتصار شمالي في آن معاً وارتبطت المقاومة في الجنوب بالجهاز الخارجي .

فانون : عنف الإختلاف

يلاحظ فانون ، وهو طبيب نفساني ، الخراب و« هيروشيما) القيم التي سببها الإستعمار . ليس المقصود ، فقط ، القطيعة مع المستعمر بل إعادة البناء . ولا يشمل الإحتكاك مع الحضارة البيضاء ، الوحيدة ، حضارة « أبناء ماركس وكوكاكولا) على عودة إلى الوراء . إن مسائل الفردوس الضائع ، والشيوعيين البدائيين هي مخاتلات رجعية . فالمستعمر يملك قدرة مدنية وعسكرية ، لكنه يملك أيضاً العلم والجدارة . فالمستعمر يملك قدرة مدنية وعسكرية ، لكنه يملك أيضاً العلم والجدارة . يريد فانون إذاً الإنطلاق من قطيعة حادة في بحثه عن إصالة سلبية : « فلنترك أوروبا هذه التي لا تنفك تتحدث عن الإنسان في الوقت الذي تقتله حيثما تجده » . إذاً ، لا ينتظر فانون شيئاً من الإنسانيين الأوروبيين ، حتى ولو لم يتقنع « لعنة الإستقلال » . فهو يفكر بالفراغ الكونغولي عندما يكتب : « أحياناً ، لا يعطي الجهد الهائل الذي تدعى الشعوب المتخلفة إلى بذله ، النتائج المرجوة » . لكن فانون يعلن نفسه

شاعراً لعفوية الجماهير ولجمال عنفهم الشافي والمحرر[1] في عالم مقسوم إلى قطعتين بواسطة الثكنات ومراكز الشرطة . يريد أن يعيد العنف . « ان العنف الذي أشرف على ترتيب العالم الإستعماري والذي وقع بلا هوادة دمار الأشكال الإجتماعية المحلية ودمر النظم الإقتصادية الظهور والهندام دون استثناء ، سوف يتحمل المستعمر مسؤوليته ويعلنها عندما تقرر الجماهير المستعمرة أن تكتب التاريخ ، فصلاً فصلاً ، وذلك بتوغلها في المدن المحظورة » . ليس فانون هنا بعيداً عن (باتاي) ، أي عن مخالفة منقذة . لكنه لا بد من ذكر أثر (سيزير)Cesaire الذي خرج من الحزب الشيوعي عام 1956 ، والذي سيقول لفانون : « ربما كان يجب أن يكون المرء من الأنتيل ، أي معدماً وفاقداً ذاته لدرجة تدفعه إلى المضي بهذا الحماس للوصول الى تحقيق ذاته ملياً » .

يصف فانون العنف ، عنف المستعمر الذي يصنع التاريخ (تاريخه هو) على نقيض تاريخ المستعمر . لا يمكن لهذا العنف أن يستسلم إلا بعنف أكبر . ويواجه المستعمر تدمير تاريخه بنضاله الحاضر . ففي هذا النضال تجد الثورة الشعبية تصديقاً لها بالإضافة إلى تبريرها المرحلي .

يوضح العنف بطلان أي بناء إنساني قائم على القيم . فالكراهية تجوب ، عملياً ، النسيج الإجتماعي وحتى ولو أن هذه الكراهية تزعج الأممية المجردة ، ويلاحظ فانون : « دهشنا عندما لاحظنا سكان أفريقيا الشمالية يكرهون الملونين . . . إن الفرنسي لا يحب اليهودي وهذا لا يحب العربي الذي لا يحب الزنجي » .

أن نفهم كل شيء يعني أيضاً أن نستشهد بالسيد وبالعبد . إن فانون ـ مثل محمد سهلي أو أنور عبد الملك ـ متأثر هنا بقراءة سارتر لهيغل .

غير أنه إذا كان هيغل يقول بالمبادلة ، فالسيد الإستعماري لا يأخذ بعين

---

(1) العام الخامس للثورة الجزائرية ؛ المعذبون على الأرض .

الإعتبار شعور العبد : « هو لا يطالب بعرفانه بل بعمله » . غير أن فانـون السياسي هو أيضاً طبيب نفسي . وقد عمل في (سان البان) مع (تـوكيل) وصـادق (أوري) و (لابـورد) لذلك يلاحـظ أخفـاق وصف الأمـراض الكلاسيكي كله في مجتمع مضطرب . لم يجر التركيز بما فيه الكفاية على هذه الناحية من فانون ، على غنى تحاليله التي تبشر بأفضل ما سوف يظهره الطب النفسي المضاد (autipsychiatrie) بعد خمسة عشر عام . لقد قلـب واقـع العنف الإستعماري ، تماماً ، التصنيف الثلاثي : واقعي - خيالي - رمزي .

دعونا نستعيد بعض الحالات التي حللها فانون ، أي حالات :

- العجز عند الجزائري على أثر اغتصاب زوجته .
- غرائز إجرامية غير متميزة لدى أحد الناجين من تصفية جماعية .
- ذهان قلق وخطير على أساس ضياع الشخصية أثر قتل امرأة بضراوة .
- حارس الشرطـة الأوروبـي الخائـر النفس الـذي يلتقـي في وسـط مضياف ، إحدى ضحاياه ، أي مواطن جزائري مصاب بالذهول .

- اغتيال اوروبيين من قبل رفيقهم في اللعب وهما شابان جزائريان عمر الأول ثلاث عشرة سنة والثاني أربع عشرة .
- هذيان اتهامي وتصرف انتحاري مقنع « بعمل ارهابي » لدى شاب جزائري يبلغ الثانية عشرة من عمره .

تطرح هذه الحالات ، بمجرد ذكرها بطلان علم الأعراض اللاتاريخي لمدرسة الجزائر . يثبت فانون في كل من هذه الحـالات أن الإجـرام محصلـة اجتماعية .

ليس إجرام الجزائري و «اندفاعه» وعنفـه وجرائمـه حصيلـة « نظامـه العصبي » فقط (كذا) بل نتائج مباشرة للوضع الإستعماري . يحلل فانـون انتاج المجتمع للعوارض ويعلن تبنيه له .

في الإطار الجزائري ، ينبغي على فانون أن يعارض الأطبـاء النفسيين - اللاسياسيين كما يجب أن يكونوا - لمدرسة الجزائر وكاتبي المقالات الإفتتاحية

في « صدى الجزائر » على حد سواء . يتفق الجميع على اعتبار الحرب التي اندلعت عام1954 عمل جماعات مجرمة تخلو من العقل ، بنسب متفاوتة ، وليس حرب استقلال . بدل أن يتدثر بثوب فضفاض ككثير من الثوريين المتزمتين عندما يعتبرون أن كرامتهم قد أهينت ، يدعي فانون أن الحالة المرضية هي حالة فعالة بشكل من الأشكال . لا « يفسر » فانون تلك الحالات بل يجعلها قابلة للفهم ، وذلك بوصفه للبيئة ، فهو لا يصنع جهازاً لتبرير تلك « الوحشية » ، بل يضطلع بمسؤوليتها . يعود الفضل إلى فانون إذ نقل العنف من دائرة العلاقات الدولية من أجل كشفه على الصعيد اليومي ، على صعيد المجتمع الأصغر . لن ينتزع الأرث الإستعماري في المحورة على الذات والقهر ، إلا بعنف مطهر . إن العنف ينقي ، فهو « عفو ملكي » أنه فعل أخلاقي يعيد للمستعمر الثقة بنفسه . إن العبد الهيغلي إذ يصبح فانونياً يفرز العنف ؛ هوذا عمله أي « تطبيقه العملي (Prascis) المطلق » .

يطلب فانون من المناضل ، العمل الذي لا عودة عنه ، الذي يختم الإلتزام . يبني إذاً جهازاً لعودة السلبية . لقد اتهمه الكثيرون بنقص في « النضوح السياسي » وبنسيان التربية السياسية والتنظيم الضروري لطبقة الفلاحين. هذا اللوم، نظمه الشيوعي الفيتنامي نغوين نغي . وإذا كان صحيحا ان موقف فانون من العفوية يبدو سريع العطب ، فصحيح أيضاً أنه بعد أن أشاد بها ، يرضى بضرورة « تقنيتها » . لكن تبقى مسألة الحزب وتنظيمه وهرمتيه التي لم يطرحها فانون أبداً . وهو إذ يدرك العقبات ، عقبات ما بعد الإستقلال ، يبقى غامضاً حتى عندما يعترف « أنه يحصل للزنوج أن يكونوا أكثر بياضاً من البيض وأن إمكانية علم وطني وأمة مستقلة لا تدفع بعض طبقات الشعب إلى التخلي آلياً عن امتيازاتهم أو مصالحهم » ولكن تبقى مسألة السلطة دون تحليل لدى فانون الذي يبقى سجين المرحلة البطولية للنضال المسلح . يعتقد فانون ، وكذلك غيفارا فيما بعد وقد فتنه فانون بكل ما للكلمة من معنى ، إن الحزب التقليدي عاجز عن قيادة الثورة . هو أيضاً يرفض فصل ما هو سياسي عما هو عسكري ، كما سيرفض الفجوة التي

ستحفر ، خلال حرب الجزائر ، بين الحكومة المؤقتة في تونس والقوات المسلحة في الداخل .

قطع فانون إذاً كل المجال الثقافي من البحث عن الهوية حتى العنف الأقصى . وعندما كان مناضلاً في جبهة التحرير القومي لم يعر العامل العربي الإسلامي سوى أهمية ثانوية . وكان ذلك عن سابق تصور وتصميم ، إذ أنه ، وإن لم ينكر واقع الحس القومي وإن لم يعتقد أن الشعوب تستطيع تجاوز هويتها القومية ، فهو يريد تحطيم الالتباس الضعيف بين الشعور القومي والقومية . وهو يدرك مخاطر عودة ـ العودة الخرافية ـ فكرة الأمة السوداء . وهذه الفكرة تمحي الفوارق بالنسبة له ، وهي ليست سوى نسخة مقلوبة لغش المستعمر . إن الإشادة بالزنجية تطمس الفوارق الطبقية و التفسخ والصراعات . وعندها يرى المرء ، ويشعر أنه غير متميز : « أن مفهوم الزنجية ، كونه تأكيد غير مشروط للثقافة الأفريقية ، يقود إلى طريق مسدود » ، فالسود الأميركيون لا يملكون الثقافة ذاتها التي للأفارقة (سوف يختبر كليفر ذلك اختباراً مريراً بعد ذلك ببضع سنوات) : « إن الزنوج من سكان شيكاغو لا يشبهون النجيريين أو سكان تنجانيكا إلا بمقدار ما يتميزون عن البيض فقط » . لذلك يناهض فانون الزنجية الغالية على سنغور . وإذا كان تعلق بها بعض الوقت ، فهو يضطلع بمهمة الخروج من السراب الأسود الكبير . إن تخطي هذه المرحلة يعني الإمتناع عن تقديس الواقع الأسود .

غير أن فانون مزعج اليوم. كما أن عنفه العلاجي ، الذي كان يفترض به تغيير واقع المرأة والشباب بشكل لا عودة عنه والذي كان يجب أن يقلب كل العقائد الدينية ، لا زال يضايق الحكام .

إذا كان صحيحاً أنه توهم المضمون الإجتماعي الثوري للإستقلال ، فلقد لعب كتاب مثل « جلد أسود واقنعة بيضاء » دوراً هائلاً في تكون النضال التحرري لدى الفهود السود . أن كليفر المناضل يعلن أنه فانونياً[1] وسوف يذكره إلى جانب والكولم أكس « كأحد الوجوه المؤسسة لهذه الحركة » .

---

(1) Soulonice.

يقال أن انطلاقة أفريقيا السوداء هي انطلاقة سيئة . لكن علينا ، هنا أن نحلل السياق الذي أوصلنا إلى الإعتقاد بأن التخطيط مثلاً ، كان يتيح ، وبشكل سحري بإخراج القارة الأفريقية من التخلف دون الأخذ بعين الإعتبار للأوضاع الطبيعية والبشرية للطبقات. حلت في ميثولوجيتنا ، اليوم ، الإنقلابات العسكرية مكان العقائد(Dogoms) ولكن هل من المضحك ملاحظة مذابح أمين دادا ، هذا الإفراز المباشر للإستعمار الإنكليزي[1] .

ينبغي علينا أن نرحم أفريقيا في عالم تحدده القوى الإستعمارية . أفريقيا هي أيضاً ثلاثة قرون من النخاسة ، كما أن خطر التنقل بحرية لم يمض عليه وقت طويل . وقد ظهرت تجاه هذا التخطيط المدمر مسألة الوحدة الأفريقية ، أي القومية الأفريقية ، هذا الوهم الآتي من أميركا . لقد لعب وب دوبوا (1868 — 1963) دوراً كبيراً[2] لكن سنغور أيضاً لعب دوراً مهماً في تكوين الهوية الأفريقية .

يمجد سنغور القيم التقليدية الأفريقية ، حتى أنه يكتب : « الإنفعال هو زنجي كما العقل هليني » ، والمجتمع الأفريقي ، في فكره ، جماعي ، ويملك سر طريق ثالث بين الرأسمالية والماركسية ، هكذا يستنبط مفهوم الزنجية . سوف تلعب هذه المفاهيم دوراً كبيراً في المقاومة الأيديولوجية الأفريقية ، لأن أفريقيا لا تقارن بشيء مع آسيا . لقد وقع الإستعمار في آسيا على ثقافات وعلى دول تقليدية . بينما يختلف الوضع الأفريقي تماماً ، إذ أن مجمل الأطر القديمة اندثرت إلى رماد . يجب انتظار نكروما لأيجاد شخص يملك طموحاً يخص به حزبه وأفريقيا بتصور فلسفي وسياسي متماسك ، ولا يكتفي بفلسفة أفريقية » خرافية . بعكس سنغور الذي امتزجت مسائل الزنجية لديه بدخان (غوبينو) و(تيار دو شاردان) ، يستلهم نكروما الماركسية

---

(1) راجع مجلة الكتب النيويوركية1976 .

(2) راجع Daniel Guérin : Ou va le peuple americain ? Julliard

صراحة . وليس سنغور بالنسبة له ، « سوى جامعي افريقي اختاره الاستعمار ليصبح الخادم المنور للإدارة الإستعمارية والمهيأ لتقبل بعض النظريات الكونية شرط أن تكون مبينة بتعابير غامضة ومنمقة » . يستلهم نكروما[1] لينين وبالتحديد « الأمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » . وإذ نفي إلى انكلترا والولايات المتحدة ، كان محظوظاً بخلاصه من فكر جدانوف الذي كان - في تلك الحقبة - يحل مكان الماركسية في فرنسا .

يحاول نكروما إذاً إبراز التناقضات الإقتصادية الملازمة للنظام الإستعماري . يحلل آليات المصلحة الامبريالية دون أن يقع قط في ذاتية واعظة . ليس المقصود أن ننطلق من افتراضات أخلاقية مسبقة بل من التناقضات الإقتصادية . ليس مهما تسمية السيطرة انتداباً أو مشاركة . المقصود هو تسمية العدو واستباق تكتيكاته بما فيها تنازلاته الإنسانية على شكل مشاركة أو حكومة مختلطة . يرفض كتيبه عام1947 كل حل وسط بين التبعية والتبعية المتبادلة . وهو يطرح انشاء تنظيمات سياسية قومية مشتركة في أفريقيا الغربية ، متخلياً عن حلم الوحدة الأفريقية .

وعند عودته إلى غانا عام1947 ، أصبح نكروما اميناً عاماً للمؤتمر الإتحادي للشاطىء الذهبي . وبعد سجنه أثر تنظيم اضراب عام ، صار يتذبذب في حكومات مختلطة أنها تلك التي كان قد فضحها في « نحو حرية استعمارية» . وسنجد في عام1953 صياغة استقلالية مبينة بوضوح . تلك هي صياغة (مجمهوت ديوب) : « المخرج الوحيد : الإستقلال التام » . (. . .) الطريق الوحيد : حركة واسعة من أجل وحدة مناهضة للإمبريالية (. . .) التمثل طوباوي وغير مستحب في آن معاً ، إذ أن الرغبة في الإستقلال هي القاسم المشترك الوحيد حالياً بين اتباع جميع العقائد . والأيديولوجيات والأديان الأفريقية . هو لا ينادي إلا رغبة كل فرد في أن يعيش

---

(1) نحو الإستقلال الكولونيالي ، 1947

حراً ، المقصود فقط هو الرغبة في استقلال أفريقيا والعمل له »(1) دعونا نذكر أنه في المقابل ، ينادون بوقاحة بارتباط الشعوب ، وهذا رائد للإستعمار الجديد ، باختصار يجب على الطلاب الأفارقة أخذ الإستقلال عنوة . يجب أن نرد على المستعمر الذي يعلن : « لا تعرفون صنع ابرة وتتحدثون عن الإستقلال » . هكذا ، يوجد أجوبة مختلفة لدى القادة السياسيين . يبشر سيكوتوري بالإستقلال . لكنه يطالب بمساواة غامضة جداً ، لأنه لا يريد قطع العلاقات مع البلد المستعمر (المتربول) .

وبعد الإستقلال سنة 1957 ، سوف يختلط عمل نكروما وفكره و « التفافاته التكتيكية » مع عمل وفكر وتكتيك القارة . ويصبح نكروما أكثر غموضاً وأكثر « عقائدية » بتخليه عن دقة تحليله للإستغلال الإقتصادي . إلا أن التحرير بعد استقلال غانا وغينيا ، سوف يطرح بتعابير أخرى وتجمع أكرا مؤتمراً للشعوب الأفريقية يحضره لومومبا .

في الواقع ، كان الكونغو يستيقظ للتو على الحياة السياسية . لكن ثمة فراغاً كونغولياً لا يملأ إلا بالجواب على الملك البلجيكي : « لن ننس أبداً انكم بالأمس كنتم تشنقونا عالياً وسريعاً » ان التضامن الأفريقي هو الذي دفع لومومبا إلى السعي لتجربة الإستقلال دون كوادر تقنية ولا كوادر عسكرية وبدون تنظيم قومي . لقد حقق الإستقلال الكونغولي تناقض سلطة فارغة خالية . وفي وقت ما ، لم يعد الكونغو موجوداً كوحدة سياسية (كان البلجيكيون يراهنون على أزلية سيطرتهم ولم يكونوا قد أنشأوا سوى طبقة أدارية جزئية) . لا تمثل الحركة الكونغولية إلا بضع مئات من الأشخاص وعلى الفور عاد التفسخ القبلي القديم للظهور . ليس بوسعنا أن نتحدث هنا عن انشقاق بين الجماهير والتنظيمات ، بل أن القضية أخطر من ذلك : لم يحدث شيء ، وعند الإستقلال كانت المنظمات في وهم الحكم البحت . لقد تشبهت القوة العامة القديمة بالمستعمرين إلى حد أن الجندي الكونغولي تصرف هو أيضاً

(1) الحضور الأفريقي .

مثل قاطع طريق في بزة نظامية . شكلياً ، كل شيء في مكانه مهيء للإستقلال ، لومومبا في الحكومة وكاسافوبو في الرئاسة والنواب في مقاعدهم . لكن هذه الآلة التي تنسخ النماذج الغربية ، على أكمل وجه ، تدور في فراغ . يصغي العالم كله إلى خطابات لومومبا ، أما في ليوبولدفيل ، فلا أحد يتحرك من أجل سماعه . الكونغو مستقل ، لكنه يطرح على الجميع مسألة الإستقلال في حال بقي كما هو .

لكن الوحدة الأفريقية سوف تثبت أنها حية خلال حرب الجزائر . وكان أي انتصار فرنسي كفيلاً بإنهاء الحركة الأفريقية . واصل نكروما مدحه للوحدة الأفريقية[1] ، فاستند إلى الدساتير الروسية والأميركية ليطرح على أفريقيا حكومة مركزية وبتشديده على اعتباطية الخريطة الموروثة ، أراد نكروما أن يواجه بالوحدة الصراعات الأفريقية « الموجهة من الإمبريالية » . يقول أنه من « المستحيل الخروج من التخلف في إطار دول لا يملك معظمها السكان الكافين من حيث السوق أو اليد العاملة » . لكن ما العمل لترجمة هذه الآفاق المستقبلية المحمسة إلى أفعال ؟

إن أفريقيا المعاصرة لم تجب بعد .

غيفارا : « فيتنامان أو ثلاثة جدد »

لعب غيفارا ، ولا زال يلعب ، دور أيقونة . إلا أنه ينبغي الا تطمس « ملصقاته » فكره . كتب غيفارا : ينبغي الأخذ بعين الإعتبار واقع أن الأمبريالية هي نظام عالمي ، والمرحلة العليا من الرأسمالية وأنه يجب تحطيمها في مجابهة عالمية كبرى » . غيفارا هو من نوع حماس ديان بيان فو ، وانتصار السيرا مايسترا ، ونصر جبهة التحرير القومي الجزائرية . إنه لا يذكر ولا يحلل الهوك الفيليبينيين ولا الهزيمة الماليزية . ترجع نظرية البؤرة الفوكوfoco لديه إلى ثلاثة محاور :

---

(1) افريقيا يجب أن تتوحد

1) يستطيع الفدائيون التغلب على الجيش النظامي .

2) أرض حرب العصابات هي الريف .

3) بوسع البؤرة الثورية أن تخلق شروط اندلاع النضال .

إن الأطروحة الثالثة هي الجديدة . من المعروف أن غيفارا يريد خلق « فيتنامين أو ثلاثة جدد » . لذلك وباستخدامه هذا النموذج بقي على الحياد في الصراع الصيني - السوفياتي . غير أنه منذ 1957 ينتقد في خطابه في الجزائر ، السياسة التجارية السوفياتية تجاه العالم الثالث « كيف نستطيع أن نسمي ربحاً متبادلاً حقيقة الأسعار في السوق الدولية للإنتاج الخام الذي يكلف البلاد المتخلفة جهوداً وآلاماً لا حد لها ، وشراء الآلات المنتجة في المصانع الكبرى الممكننة الموجودة اليوم بأسعار السوق الدولية »[1] . لكن غيفارا هو خليفة بوليفار ، إذا صح التعبير ، ويريد تحويل سلسلة جبال الأند إلى سيرا ما يسترا القارة الأميركية . لكل قارة خصائصها أي لغتها وعاداتها ودينها وهي عوامل توحيد . علاوة على ذلك سوف تترسخ هذه العوامل بفعل الدور العالمي للإمبريالية الأميركية .

لكن « الفوكو » هو أيضاً إعادة اعتبار للذاتية . ويجب عليه صنع « النضج في الوعي الشعبي » . إن غيفارا ، على خلاف ماو ، يقلل من دور الحزب الطليعي . ويشكل العنصران : السياسي العسكري ، بالنسبة له ، كلاً عضوياً . ويتدرج مشروع غيفارا في تصور أنسية ثورية . هوذا غيفارا نفسه الذي يريد تحرير الناس من الخضوع السياسي وطغيان المال[2] .

عندما أصبح وزيراً فضل الحوافز الأيديولوجية على الحوافز المالية . ولما كان فدائياً في حرب العصابات ، وأصل انحيازه إلى الحوافز نفسها .

---

(1) مذكور في « الماركسيون والسياسة » تيميس .P. U. F .

(2) « المصرف والرصيد والإشتراكية - المؤلفات الكاملة . الجزء الرابع ، ماسبيرو.

وإذا كان سهلاً جداً اليوم ان ننتقد اخطاء التشي بأن نلعب دور بوم مينرفا ، يجب ، على كل حال ، التساؤل عن مغامرته في بوليفيا . ثمة واقع يفرض نفسه عندما نقرأ غيفارا : أنه سحر موته . أنه لمن المذهل ، هنا أيضاً ، وبدون السعي إلى الشعوذة وبسهولة بالغة مع ناناتوس ، أن نراه يتوقعه : « كي ينهض رجال آخرون ويدندنوا أناشيد الموت مع فرقعة الرشاشات وصرخات أخرى للحرب والإنتصار » أن هذا الكلام يبدو نبوياً بمأساويته(1) إذ أن موته وحده هو الذي أدخله إلى بوليفيا . يذكر دوبريه(2) أن في بوليفيا ، لا يقع مركز الحياة الإقتصادية الوطنية في الريف ، باختصار لم يكن لمحاصرة المدن من خلال الريف معنى . هذا ما كان يدركه التشي ، لذلك ليس لمشروعه معنى إلا على صعيد ستراتجية قارية(3) . كان المقصود خلق سلطة شعبية تساندها قوة عسكرية مستقلة على خلاف التيارات التي تطمح إلى الإستيلاء على سلطة الدولة قبل قلبها فيما بعد ، كان التشي يريد البدء بالبناء الفعلي لسلطة شعبية . غيفارا هو ، هنا أيضاً ، وريث هذه القارة التي احتلتها حفنة (بيزاري ، كورتيس) وحررتها حفنة أخرى (بوليفار ، سان مارتان) . ولكن كيف السبيل الى تحرير الجماهير عندما يكون فيها نقص مادي ؟ يذكر دوبري « أنه في اسبوعين من المسير في الغابة ، صادف طابور التشي عائلة فلاحية واحدة فقط ؛ علاوة على ذلك لم يكن ذاك الفلاح عادياً بل (روجاس) الذي باع المؤخرة كلها » . ثمة فرق أساسي بين التشي في (سيرا مايسترا) والتشي في (النانكا هوازو) في الحالة الأولى ، يحصل الإنزال في جزيرة ، حيث تخفف شبكة وطنية مكونة من متعاونين وشركاء ومناوبين من سرعة القوة الواقعية للتنظيم الكاستري . ثمة فرق أساسي آخر يبدل التصور . لم يكن الكاستريون ينتسبون في شيء إلى الإشتراكية أو الثورة

---

(1) كتب فيديل كاسترو في « الثورة الكوبية » : « كان شي جندياً لا أحد يستطيع تخطيه إنما كان له عقب أشيل ، أنه عدائيته البالغة واحتقاره المطلق للخطر » .

(2) « نقد الأسلحة » ، سوي .

(3) يدرس فارلين في « هيرودوت » ، رقم5 ، النواقص في التحليلات الجغرافية ، كأخطاء سلم لدى تشي .

ولم تتدخل الولايات المتحدة بشراسة ، دون أن تتركهم ينجحون . في الحالة الثانية ، وجد طابور غيفارا نفسه معزولاً ولما هاجمه الرانجز ، فقد المبادرة . إن ما اعتقده التشي منطقة تدريب تحول ـ دون أن يدري ـ إلى مسرح مأساوي للعمليات .

نهاية الغبطة التي احدثها العالم الثالث

إذا أراد المرء أن يكون سياسياً ، إذاً عملياً ، من المناسب أن يحل تحليل الحاضر مكان حماس الماضي . لقد غيرت حروب التحرير الخرائط لكن البورجوازيات الصغيرة الوطنية او البيروقراطيات التي خلقت الحكم الإستعماري تسيء إلى حلم التحرر الإشتراكي الكبير . لقد تحالف الغرب في كل مكان مع الطبقات المحلية المسيطرة ومع ملاكي الأراضي . وفي كل مكان قذف الفلاحون في السوق العالمية . كان الغرب قد أوصل الإقتصاد السابق ، جزئياً إلى المرحلة الرأسمالية . إنما إطار التطور كان قد ظهر محدوداً ومتفاوتاً . لا شيء كان يمنع فرنسا حقاً من تطوير الجزائر ، لكنها لم تفعل ذلك . لقد فرض النموذج « الإشتراكي » نفسه كعقيدة في التحرير . وأغرى القادة المحليون بكونه خليطا من الإصلاح الزراعي وتأميم الصناعة والتجارة والتخطيط . وأتاح ـ مبدئياً على الأقل ـ خلقاً ذاتياً للرأسمال « باستغلال العمل » واستثمارات الدولة على حد سواء . وقد كانت الصين ثم الإتحاد السوفياتي اقطاب هذه الآمال التأميمية والتخطيطية (هذا ما سماه ماكسيم رودنسون « ستالينية المتخلفين تلك ») . لكن هذا النموذج يسمح بإرضاء قسم من الكوادر أي النخبة الشهيرة جداً إنما لا يعني كثيراً التحرر الحقيقي للجماهير . لقد تحول نموذج البيروقراطية السياسية ، الذي ينشأ خلال النضال ويفرض انتماء الجماهير بعد انتزاع الإستقلال ، إلى بيروقراطية سياسية اقتصادية . ومحت الأحزاب التي كانت فعالة في تصفية السيطرة الإستعمارية تناقض الطبقات ومسألة الإستعمار الجديد ، وباختصار مسألة السلطة . إذا كان 70% من سكان الأرض يعيشون اليوم بـ22 بالمئة من الدخل العالمي ، فليس العالم الثالث سوى منطقة ثانوية في استثمار الرساميل . ثم ان العالم

الثالث ليس موجوداً ؛ ولا يغطي هذا المفهوم الكاذب شيئاً . ليس للهند شيئاً كثيراً مشتركاً مع أوغندة . . . أكثر من ذلك أيضاً ، ان التحليلات بتعابير النهب التي تأتينا من روزا لوكسمبورغ تتطلب الإعادة[1] (تتطور الولايات المتحدة من هذا النهب بقدر ما تتطور من ذاتها ، على الأقل) لقد قدر (تيبور مند) أن « العون يرتفع عملياً إلى 0,2 في المئة من الإنتاج القومي الإجمالي للبلدان المتخلفة » (يقدرها الإقتصاديون الليبراليون بـ 0,7 بالمئة) . باختصار ، لقد اعطى التاريخ ، في كل مكان ، الحق لهيغل الذي كان يصفه بأنه « وادي عظام الموتى » .

الدولة دائماً الدولة

تتحرر البشرية من العبودية بالعبودية ، بالنسبة لهيغل . ليس تاريخ العالم مكان السعادة . ما هي أفريقيا بالنسبة لهيغل مثلاً ؟ ـ هي « قارة الطفولة والعفوية » هي خارج التاريخ الحقيقي . أليس الحق ، مأساوياً ، مع هيغل ؟ غير أن هيغل يهمنا من حيث أنه يدرك بروز الدولة . ما هي الدولة ؟ هي الوساطة الأعم التي تستميل كل الوساطات الأخريات مدن / ريف ، زراعة / صناعة ، علم / انتاج . لكنها لا تبنى وتتأسس الا بالمجتمع المدني . دعونا نتتبع « مبادىء فلسفة الحق » . « يفرض المجتمع المدني (الغائب بقسوة في العالم الثالث) أن يكون كل شخص معين على علاقة مع خصوصية الآخرين المتشابهة بحيث يؤكد كل واحد نفسه ويرضيها بواسطة الآخرين ، ويصبح في الوقت ذاته مجبراً على المرور بشكل الكونية . يصبح الهدف الأناني إذاً أساساً لنظام تبعية متبادلة وسط المجتمع المدني » . هذا ما نسميه الإقتصاد . يتكون النظام من إنتاج وتوزيع واستهلاك الخيرات . لكن هذا النظام متناقض ، إذ أن التعاون مستقل نسبياً عن الدولة . هذه التناقضات ضرورية وهي دليل عافية . إن محينا هذه الصراعات تصبح الدولة كلية وغولاً بارداً . . وذلك لأن هذه التناقضات تقوى بعضها بدل ان تنكر كل

---

(1) بقدر ما يشددون على العوامل الخارجية حيث ينزعون إلى التقليل من العوامل الداخلية .

واحدة منها الأخرى . ويؤدي اختفاؤها إلى الارتداد إلى كتلة لا تميز فيها ، إلى بربرية الأحد La barbare de L'Un . يفهم هيغل الدولة إذاً كوجود يجمع العقلانيات المنتشرة . لكن هذا ، بالنسبة له ، ثمرة العقل المتوصل إلى النضج . توجد الدولة في النهاية ، بالنسبة لهيغل فهي سبب غائي . إننا نلاحظ المسافة كلها بين هذا التفكير والصور الكاريكاتورية للطغيان الإداري التي تحققها معظم البيروقراطيات العاجزة حتى عن الوصول إلى التراكم البدائي . إن هذه المعاينة مرة . لقد أوجد التطور الإستعماري من جهة سوقاً عالمية تزرع العبودية وفكرة الحكم الذاتي معاً ، لقد صنع الغرب السيطرة الأشرس كما أوجد معارضتها الأكثر جذرية . لكن ما نسميه أزمة قيم وهويات وأديان وأزمة جنسية لم يكن ليحصل لولا نضالات التحرير ، لولا عودتها إلى أحضان الغرب الأكثر تقدماً . لقد نشأ كليفر وأنجيلا ديفيس واليسار الجديد الأميركي . . . من هذه النضالات . لكن «تبار العالم الثالث» كان يرتكز على مجرد انعكاس . كان من المفترض أن يفرز البؤس والذل أنظمة ثورية . إن هذه المبالغة في تقويم الرغبات والقدرات لدى الجماهير من قبل المثقفين الغربيين ، هي التي يجب أن تؤخذ اليوم بعين الإعتبار ، إذ أن جلذانا فتية مجهولة وخفية لا تزال تقرض . . . .

المصادر والمراجع

لعب فرنسوا ما سبيرو ولا يزال يلعب دوراً هائلاً في نشر نصوص عن العالم الثالث . دعونا نذكر أيضاً السلسلة « تاريخ مباشر » التي يديرها جان لاكوتير (سوي)

بعض العناوين :

بينو (ي) : استقلالات افريقية ، ماسبيرو
شاليان (ج) أوهام ثورية من العالم الثالث ، سوي
جندزيه : فانون ، سوي
جياب : حرب الشعب ، سلاح الشعب ، ما سبيرو
غيفارا : المؤلفات ، ماسبيرو
هيغل : العقل في التاريخ.V.G.E
هيغل : مبادىء الفلسفة الحقوقية ، افكارN.R.F
جالي (ب) : نهب العالم الثالث ، ماسبيرو
جومو كينيانا : على سفح جبل كينيا ، ماسبيرو
لاكوتير (ج . و.س .) : فيتنام ، رحلة من خلال انتصار ، سوي
ماو : الحرب الثورية ، U.G.E

الايديولوجيا والتمرد

تقـدم التمـردات البرهـان على وجودهـا ، وهـو ليس برهانـاً « ايديولوجياً » ، مهما أعطي لكلمة أيديولوجيا من معنى : وهم يسبق العلم أو يرمز اليه أو يناقضه أو أيضاً خرافة أو دين أو نشاط رمزي ، الخ .

والتمردات المعاصرة موجودة رغم الأيديولوجيات الحديثة التي تنزع إلى « تخطيها » بشتى الطرق ، سلمية كانت أم عنيفة بإسم التقدم التقني والتوسع الإقتصادي ـ الثقافي أو الثورة الأممية والنهائية . وتعلم جميع الأيديولـوجيات المسيطرة في القرن العشرين (الماركسية .والليبرالية ، وغيرها) أن زمن التمرد قد ولى . غير أن كل تاريخ القرن العشرين نسجته تمردات غير متوقعة من قبل السلطات القائمة (الثورات المناهضة للإستعمار ، المقاومة المناهضة للفاشية ، التمرد المناهض للسوفييت في أوروبا الشرقية). ويكمن جوهر الستراتيجيات الحكومية في السيطرة على احتمالات التمرد في المجتمع المعاصر والتعامل معها .

قد تبـرز عوامـل غـير متوقعـة في برامـج اعـادة النظـام : الفلاحـون « البرابرة » في المستعمرات والمحميات « المتخلفة » أو « هـامشيو » طلاب ، صغار التجار ، فلاحون) المجتمعات المسماة متقدمـة . ان الثـورات غالبـاً هامشية ـ تأتي من مناطق ظل لا تسيطر عليها السلطة المركزية سيطرة مطلقة ، هي إذاً هامشية بالنسبة لتقنيات السيطرة ـ وتتميز بالتالي عنالإرهاب الفردي وعن التجمعات الصغيرة ، لكنها ليست من فعل أقليات بل قوتها تكمن في تكونها في الأرياف كما في شوارع المدن الحديثة في « حركات جماهيرية » . ولا بد للتمرد أن يصبح أكثرياً في القطاعات والطبقات الإجتماعية التي يلهبهـا ـ

يجب أن يكون المتمردون في وسطهم مثل « الأسماك في المياه » ، كما يقول المنظرون الصينيون والفيتناميون عن الحرب الشعبية .

إذا لم يكسب المتمردون مشاركة السكان المتفاوتة الصمت ، أو إذا فقدوا هذه المشاركة يصبح التمرد محكوماً بالفشل ، خاصة وأنه يتصدى لدولة وهو بدون دولة ، ويجابه شرطة متعددة وهو بدون شرطة، وتحاصره الأنظمة العامة وهو دون أي نظام . وتكمن تقنية الرد على التمرد ، لدى السلطات القائمة ، بالمقابل ، في تحجيم التمرد حتى إطفاء النيران . ويكمن رهان التمرد والرد على التمرد أيضاً ، في كسب الأغلبية . بطلقات البندقية طبعاً ، وبالقوة النفسية أو العسكرية لبعض الوسائل العسكرية ، بالتأكيد . غير أن ذلك لا يكفي ، إذ يجب ، إلى جانب الجيش المقاتل خلق جيش آخر : إنه « جيش القلم » ((ماو) . وتبدو ، في كلا المعسكرين ، المناشير والخطابات والإذاعات ، والتكهنات ، والنشرات ، والأبحاث والكتب ، و« كتاب الكتب » ، بمثابة مسألة لا يمكن بدونها كسب الأغلبية . « الأيديولوجيا » و « الثورة : يبدو حرف العطف « و » هنا ، ستراتيجياً ، إذ يساهم في تقرير مصير التمرد والرد على التمرد .

التمرد والأيديولوجيا اثنان

مزقت ثورات العبيد والحروب المناهضة للإستعمار الأمبراطورية الرومانية طويلاً . وإذا اخذت « حرب اليهود » في هذا التاريخ الطويل اهمية أكبر مما يتطلبه اتساعها الجغرافي والعسكري ، فلأن جيشاً قلمياً انضم إلى الثورات التقليدية في الأمبراطورية كلها . « إن ما اعطى لما جرى في فلسطين طابعاً مميزاً للغاية هو خصائص الدين اليهودي وواقع المسيحية كانت ملقاة على عاتق الفلاحين والكتبة معاً »[1].

سوف يحدث اختراع الطباعة وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العامية نتائج مماثلة في الثورات الشعبية في نهاية عصر النهضة . لقد انقسم الجيش

(1) ب . فيدال ـ ناكيه : مقدمة لـ « حرب اليهود » لفلافيسوس جوزيف ـ باريس 1977 ، صفحة 88 .

القلمي خلال الثورة الفرنسية إلى محامين صغار في المراكز المدينية اصبحوا خطباء في النوادي الثورية أو وزراء وكهنة صغار في الريف يحررون دفاتر الشكاوى الأكثر جذرية ثم ينشرون الثورة من أجل الإنتقام . وسوف يعاود ماركسيو القرن العشرين ، في الواقع ، ممارسة تلك الوظيفة القديمة التي كان يمارسها الكتبة ، وذلك بتقديم أنفسهم كمنظرين يأتون الى البروليتاريا بعلم الثورة (لينين) من الخارج .

يفسر ذلك سرعة التحولات ضد من كنا نكتب « لخدمتهم » وتعدد « التفسيرات العلمية » لمن وصلوا إلى السلطة .

يوشك تصنيف الجيش القلمي كعامل أيديولوجي موجود في كل ثورة - وجيش البندقية كقوتها المادية - أن يدخل تقسيماً مغالياً في حداثته . إن فصل المادي عن المعنوي ، والقاعدة عن البنية الفوقية ، والقلم عن البندقية ، ناتج بدوره عن المجتمعات المجاورة : من رأسمالية واشتراكية وعقلانية أو سلوكية . يصبح تمييز المادي عن المعنوي ، المشكوك بملاءمته للواقع الحالي ، منطو على مغالطة تاريخية عندما يتعلق الأمر بثورات ماضية ، لا تفسح الجيوش المسلحة بالقلم والجيوش المسلحة بالبندقية المجال لفصلها عن بعضها بالفأس ، خاصة عندما يكون الجيش نفسه لا يملك هذا النظام الإنضباطي الذي يحدد الجندي برؤيته في مجال تضبطه عين القائد(1) . ينبغي الا نصنف الجيوش الحديثة من عوامل التمردات لأنها أنشأت من أجل قمعها .

بدل أن نسأل العلاقات بين البندقية والقلم - وهذا ما يفصلها بلا حق ، في الأساس - من المناسب أن نتساءل إذا كانت التمردات « الأيديولوجية » تفكر بنفس الطريقة التي تتسلح بها . ان التمردات هي ، ستراتيجياً ، دفاعية ، أي « غير فاتحة » . ويمكن لتكتيكها أن يكون فاعلاً أو منفعلاً ، هجومياً أو تراجعياً أو دفاعياً حسب الظروف . أما ستراتيجيتها ومخططاتها الحربية فهي دفاعية أساساً إذ أن التمردات هي للاستقلال أو

(1) راجع ميشال فوكو : المراقبة والعقاب N.R.F. 1975 .

التحرر وليس للإحتلال . أما أن يقاتل الثائر على أرضه وبين جماهيره ، وأما أن يخسر . أو أن يصبح فاتحاً بحيث تتحول الثورة إلى عدوان أو إلى حرب امبريالية .

رغم انها تهدف الى قلب السلطة ، تخوض الثورات حرباً دفاعية . ولا يبدو التناقض إلا في الظاهر إذا اعتبرنا إن الثورة لا بد لها أن تكسب الأكثرية إذا أرادت الإنتصار . وينبغي عليها أن تظهر السلطة المناوئة كأقلية متسلطة وقد أصبحت كغريب يحتل أرضاً متمردة . ليست الحرب الدفاعية مثيلاً معكوساً للحرب الهجومية . بالعكس لقد صاغت إصالة وتفوق الحروب الدفاعية التي خاضتها الشعوب الثائرة خريطة أوروبا والعالم . فجدد السويسريون ، بثورتهم القومية والشعبية التي شملت البورجوازية والفلاحين معاً ، الستراتجية العسكرية في نهاية القرون الوسطي . وأوضح مكيافيلي على ضوء ذلك « أن المال ليس عصب الحرب كما كان سائداً » ، بالعكس ، الفضيلة هي التي تجعل الشعب يقاوم المحتل أو لا يقاومه . وتجد تفوق المقاتل الذي يناضل على أرضه من أجل منازله ، وسط شعبه ، نجده (التفوق) في الحروب المناهضة للاستعمار . وتستخدم الثورات في دفاعها أفضلية الزمان والمكان وتستطيع ، وفق الظروف ، « التخلي عن المدن ومحاصرتها بالأرياف » (ماوتسي تونغ) ، واستنزاف العدو برفض الارتماء في معركة حاسمة ، وأخيراً وفي كافة الظروف ، المقاومة .

إذا كانت حروب الثوار لا تشبه حروب الطغاة ، ما هو وضع « الأيديولوجيات » ؟ هنا يبدو المنظر أكثر تماثلاً بكثير . ننطلق من مواجهة بين نواة صغيرة من الثوار وحفنة صغيرة من الحكام (عندما تنتفض الأكثرية ، يكون الحكام قد انتهوامن الحكم) ، بين أركان الفريقين هناك الشعب الذي يصبح موضع نزاع بالتصريحات والوعود والتهديدات وسائر برامج التربية أو العمل النفسي . أهي مرحلة المرآة بين مركزي قيادة أيديولوجيين ؟ هل تضاهي ايديولوجية التمرد اعداءها في الإستيلاء والإحتلال ؟

كل شيء يجري وكأن المفروض أن يخوض الثوار حروباً دفاعية

ستراتيجياً ، إنما وبالضرورة هجومية أيديولوجياً . تؤكد ذلك أكثرية المنظرين الحاليين ، بصرف النظر عن موقفها .

قد تعوض ثورة عارمة ضعفها المادي بحماسها المعنوي وعهدها الذهبي المرتقب : لا يثور الضعيف إلا إذا كان سيكسب كل شيء أو بالأحرى يكسب كل شيء أو لينقذ كل شيء ؟

إن إنقاذ كل شيء هو تعصب على الطريقة القديمة . يذهبون في حرب صليبية يحرقون هراطقتهم . ولا تفلت من ذلك الثورات الإجتماعية أو القومية : إن العنف والإغتصاب وتدنيس الثقافة المسيطرين والمسيطرين أنفسهم ، هي تأكيدات لثقافة مكبوتة تطمح إلى لعب كل أوراقها . فهي تقتل من أجل اثبات حياتها ، ولكي تفلت من الإبادة ، وتحلم ، بالسيطرة على من كان يسيطر عليها ، أي بالنسبة لها على الأرض كلها . أي شعبٌ لا يجد نفسه مختاراً في أصله الميثولوجي ؟ فالثورة التي تهدف إلى إنقاذ ثقافته يفترض بها تحقيق الوعود . ينشد النبي دانيال (27,7) قبل قليل من حرب اليهود ضد روما ، سوف يعطي الملك والسيطرة وعظمة الممالك تحت كل سماء إلى شعب قديسيه تعالى » .

أما كسب كل شيء فهو تعصب عصري : إن الرسل التقليديين يلتفون من خلال عالم آخر ، ويستلهمون قوى رمزية توقظها الثورة بدورها وتحميها وتسلحها ، لكنها لا تصنعها . بالعكس تبدو الثورات المسلحة بالقلم والثورات المسلحة بالبندقية مدفوعة بعد ذلك إلى اجتياز الأرياف البكر : لا عالم ثان ولا جانب آخر ، بل فقط مستقبل يتقرر الآن وهنا . يؤكد ماوتسي تونغ ، وهو يطلق المسيرة الكبرى ، « الصين صفحة بيضاء » . تبدو الثورة الحديثة وكأنها لا تقطع علاقاتها فقط مع الطاغية بل مع كل الماضي الذي يمتزج به دون تمييز ، إنها تقضي على النظام القديم وتنطلق من الصغر . وان لم يحصل ذلك في الواقع ، فقد حصل على الأقل في الرؤوس وانطلاقاً من النموذج المسيطر للغاية والمصنوع على غرار الثورة الفرنسية . الثورة هي هذا

الزمن المفترض أسياسياً الذي يعاد دوماً وحيث « كل شيء ممكن » (ميشليه) .

ويعتبر التبشير الحديث أن له رسالة هي تجذير الثورات . فهو يضعها في أطر جديدة ، لم يعد المقصود انقاذاً بل كسباً ، وليس حماية شعب وأدوات اتصاله المادية والثقافية بل خلق إنسان جديد ، وصنع ثقافة المستقبل ، والقطيعة مع الماضي بشكل حاسم ، هذا الماضي « ما قبل تاريخ البشرية » (ماركس) ، والمبادرة إلى « الإقلاع » (الخبراء الأميركيون يقولونTake off وانتزاع « القديم » الأفكار القديمة والثقافات القديمة الخ . استناداً إلى ماو) .

كانت القرون الخمسة الأخيرة من التاريخ الأوروبي ثم العالمي ، إذ ذاك ، قرون علمنة الثورات وكذلك قرون خيبة الأمل وتحويل العالم إلى البيروقراطية والتجارة . ومن خلال التزمت البروتستنتي ، دفعت الأيديولوجيا الثورات الى إفراز البنى التمهيدية للمجتمع الحديث الذي سماه ماركس « رأسمالياً » : ثمة شغيل « حر » يعود فيجد نفسه عائماً بدون روابط ، يواجه سلطة تملك حرية استغلاله . ويصبح التمرد الذي تجذر على الطريقة الحديثة ثورة . ومن أجل تنظيم العالم الجديد تفرض الدولة على الفلاحين التحول إلى « معدمين لا نار لهم ولا مأوى » (الوضع الأنكليزي كلاسيكي) أو إلى « بروليتاريين أحرار » (وضع البلاد التي أعلنت نفسها اشتراكية) .

تحتاج الدولة والإقتصاد الحديثين « إلى تحطيم العالم القديم » من أجل احلال علاقات السلطة والإستغلال الخاصة بها ومن ثم تحطيم تلك العلاقات التي أصبحت قديمة لاعادة تسويقها . تلك القطيعة نسميها ثورة . عندما تستحوذ الأيديولوجيا الحديثة على التمردات تستميلها في ثورة تقدمها في كل مرة على أنها علمية وجذرية ونهائية . لم يكد لينين يصل إلى السلطة عام1918 حتى أعلن باسم الثورة عزمه على « تنظيف الأرض الروسية من كل الحشرات المضرة » يعني كل من كان له أي استقلالية تجاه السلطة القائمة من شعراء ومتشردين وكهنة وفلاحين صغار (90 بالمئة من سكان روسيا آنذاك) وتجار صغار وحرفيين وعمال غير نظاميين . . . السلطة للشعب الثائر ! هكذا كانت

تقول الثورات القديمة دون تحديد أبداً ، لمفهوم الشعب في السلطة إذ كانت مندرجة في ثقافة ونسيج اجتماعي يحدد ذلك بالنيابة عنها . من هنا اخفاقها جميعاً بالمنظار الحديث : لم تستعيد العالم من الصفر . وبالعكس تماماً ، تعطي الثورة العلمية لنفسها كل سلطة على الماضي لتطبقها في المستقبل ، وتنتهي إلى إنشاد كل السلطة للسلطة .

إن مفهوم الأيديولوجيا بدعة حديثة العهد ، ظهرت ، وكأن في الأمر صدفة ، على أثر ثورة1789 بالضبط . كيف كانت الأمور تجري قبل أن يعتبر القلم ببساطة « كسلاح » ، وجيش القلم كجيش ، والأيديولوجيا كسبيل (جيد أو سيء) لإعادة بناء العالم (علمياً) انطلاقاً من لا شيء ؟ إذا لم نكن نريد أن نستسلم لوهم العودة إلى الماضي يتوجب فهم الأيديولوجيا كمعنى واسع جداً لا يقع في نطاق المهام (الجيدة أو السيئة) التي نوكلها للايديولوجيات الحديثة . في هذا الإطار يقول دوميزيل : « إن وظيفة الصنف الخاص من الملاحم ، الأساطير هي الواقع التعبير دراماتيكياً عن الأيديولوجيا التي يحيا بها المجتمع ، والإبقاء أمام وعيه ، ليس فقط على القيم التي يتبناها والمثل التي يتبعها من جيل إلى جيل ، بل قبل كل شيء على كيانه وبنيته بالذات والعناصر والروابط والتوازنات والتوترات التي يقوم عليها ، وأخيراً تبرير القواعد والممارسات التقليدية التي لولاها لتبعثر كل شيء »[1] . في هذه الحالة ، تكون الأيديولوجيا والثورة حقيقتان لا واحدة . لكنهما مرتبطتان : فتنتمي الثورة إلى أيديولوجية الشعب التي تحميه ، وتستطيع الأيديولوجيا رواية الثورات على طريقتها . لكنهما لا تملكان المنطلق نفسه : في الأيديولوجيا بمعناها الواسع ، تتوجه جماعة إلى نفسها ، في الثورة تتوجه إلى أعدائها . تطرح ايديولوجية الميثولوجيا حلولاً للتناقضات « داخل الشعب » بينما الثورة وسيلة لحل تناقضي حربي بين الشعب والآخرين . وتقيم الأعياد والضجيج والمهرجانات الجسر بين الإثنين .

---

(1) سعد المحارب وشقاؤه .

تزعم الأيديولوجيات الحديثة ، بالعكس ، تسجيل قانونها على الصفحة البيضاء لمستقبل يخلو من أي ماض مع شعوب جرة من جميع التقاليد . تعود التمردات التي اصبحت ثورة بفضل الأيديولوجيا فتنطلق من نفس النقطة التي انطلقت منها الإيديولوجيا بتحولها إلى علم ، أي علم الثورة . تبحث التمردات والثورة عن هذا المنطلق في تلك القطيعة مع الماضي التي تبدو وكأنها تعيد « كل شيء إلى نطاق المعقول » .

الإرهاب الأيديولوجي في التمرد الحديث

لقد أخفقت جميع التمردات الماضية . أمام أي شيء ؟ تجاه الإستيلاء على السلطة . ثمة فشل الفلاحين الألمان في أيام لوثر (انغلز) وفشل منظمي كومونة باريس إذ هبوا لاقتحام السماء (ماركس) ، فهم لم يستولوا على السلطة حتى يحتفظوا بها . أما كانوا يحددون هذا الهدف لأنفسهم ؟ ذلك هو اعتراف بفشل مزدوج ! تمردهم لم يكن ثورة ناجحة وأيديولوجيتهم كانت مبهمة .

يشكل بهذا الفشل (بالنسبة لكل المفكرين العصريين وليس فقط للماركسيين) لغزاً : لا تطرح التمردات ، فجأة ، مسألة السلطة بل تدافع فقط عن الشكل الخاص الذي به تحل جماعة أخرى هذه المسألة - ميثولوجياً أو بنيوياً أو لا شعورياً أو حتى ديمقراطياً . يتمرد المرء ليستطيع طرح مسألة السلطة لا ليحلها . ان امتلاك أدوات القضية لا يعني فرض جواب .

إن المتطلبات التي تثير الفلاحين - الجنود الروس في 1917 من خبز وسلام وأرض وحرية تقلب سلطة ، السلطة القيصرية ، لكنها لا تحل مسألة السلطة . لذلك نجد الأيديولوجيا الحديثة جاهزة لسؤال التمرد (« لا حركة ثورية دون نظرية ثورية » وفق لينين) ، تسأل : ماذا تريد ؟ - هذا سؤال الثورة . ماذا تقترحين ؟ - هذا سؤال الدولة . تغير الثورة كل شيء أما الدولة فتنظم كل شيء .

يستمد كل تمرد قوته من كسب الأكثرية . بتوسيع الأكثرية ، نضبط

التمرد باسم المتمردين . كان سكان الفندية (Vendée) الفرنسية أكثيرة في مقاطعتهم ولكن أقلية في فرنسا . لقد قمع تمردهم في اطار الثورة الفرنسية باعتباره خطوة نحو الفدرالية ثم باعتباره ثورة مضادة . ولا تتعلق عملية « توسيع الهدف » تلك ، بقطعة الأرض فقط ، بل وكذلك بأهداف التمرد : إن الفلاح الذي قلب القيصر للإستيلاء على الأرض الذي يعمل فيها يصبح بسرعة ، معادياً للثورة في نظر الذين يقيمون مجتمعاً بلا طبقات ، بلا أي تفاوت وبالتالي بلا ملكية . إن البروليتاري الذي يتمسك بمبدأ الإضراب وتحديد ساعات العمل الذي حققه الخ . يصبح بسرعة اقتصادياً . وبورجوازياً صغيراً عندما يدعى إلى « النضال ضد أنانيته » ، أما في حال خطر يتهدد الوطن أو لأن النضال نهائي ويجب عليه إذ ذاك القبول بفقدان كل شيء ، ليتمكن من ممارسة السلطة في كل مجال . تلجم التمردات وتقمع وحتى أنها تحطم أحياناً بإسم . . . المصالح السامية للتمرد الذي اصبح ثورة .

بوسع المتمردين أن يرغبوا كل شيء : تلك هي الكلمة الأولى والأخيرة للأيديولوجيات الحديثة . كل ما يساعد الجماعة على التنظيم واتخاذ القرارات من قيم ومثل وروابط وتوازنات وتوترات ، وهذا ما يسميه دومينويل بكلمة واحدة ، « ايديولوجيا » في المجتمعات القديمة ، كل هذه الحياة الجماعية ، تعود لتجد لها تحديداً جديداً ، ويصبح التمرد الحديث جذرياً ، ولكن لا يكاد يجد نفسه مجهزاً بهذه القدرة على نسق كل شيء حتى تفلت منه هذه القدرة بوضع لوحة الرمي في ارتفاع يصبح فيه خارج امكانية تمرد عادي ، ونصبح بحاجة إلى مفكر عملاق لاطلاق السهم ، وينبغي على المتمردين أن يتيحوا ، لمن يملكون علم الثورة ، قيادتهم بتجذير التمرد وتحويله إلى موضوع علمي نعطي الأثنين بثمن واحد فقط .

سوف يسألون : أي تمرد لا يدعي أنه سوف يكسب عالماً بحاله ؟ ألا ينبغي وضع هذا الوعد في عداد عهد ذهبي عفوي لدى الجماهير ، هذا الوعد الذي يثيره عندما تسنح الفرصة ، تبشير نخبة ديماغوجية ؟ ينقص هذه النظرة

ذات العمومية البالغة ، تمييز أساسي ؛ هذا العالم المفترض كسبه والذي يستلهمه كل تمرد يُطرح على المحدثين بشكل خاص ، أي ليس الى جانب التمرد ، ولا فيا بعده أو قبله ، بل فقط في ختامه . « تذهب الثورة إلى أعماق الأشياء »(ماركس) .

تطرح التمردات عالمها المفترض كسبه وكأنه هناك في حياة جماعة متمردة ضد « المحتل » (اكان هذا الإحتلال اجتماعياً صيد السيد ، رب العمل « الذي يغلق المصانع في وجه العمال » - أو اتنياً) . وليس ذلك لأنها محافظة ، لأن ديناميكية التمردات تحول الثوار وتحيي الجماعة . لكن التمرد لا يدعي مهمة إعادة تحديد « كل شيء » ، فهو في العالم الذي عليه أن يكسبه يشبه السمك في الماء . إلا إذا أكدنا أنها ثورة أي عمل ولد مطلقاً من خلال وضع عنيف .

ثمة « علم » يؤمن الإنتقال من التمردات إلى الثورة الحديثة التي تصنع مجتمعاً وإنساناً جديداً ، وتلتقط التمرد وتقذفه في الطبقات العليا لمعيدي خلق العالم . علم الثورة هو بداية الحكمة الحديثة وعلم المجتمعات . لا يرى التوريون أن أب الجدلية الماركسية ، الفيلسوف الألماني هيغل لم يعد متطرفاً فحسب ، في1825 وذلك منذ عقود ، هذا إذا كان يوماً متطرفاً ؛ بل إتهم ، بشيء من الخفة ، لقد اصبح «الفيلسوف الرسمي للدولة البروسية » ، ورغم كونه رجل نظام ، بقي مصراً على تحية الثورة الفرنسية : « منذ أن اصبحت الشمس في السماء وبعد أن أصبحت الكواكب تدور حولها لم نعد نرى الإنسان منكس الرأس أي معتمداً على الفكرة وبانياً عليها الواقع . . كان ذلك إذاً شروق شمس عظيم . وقد احتفل بهذه الحقبة كل الكائنات المفكرة . وساد في ذاك الزمن انفعال سام وجعل حماس الفكر العالم يرتعش . . . » .

لا يحتفل هيغل بالثورة متذكراً نزق الشباب : رجل النظام هو الذي يتلقى هذا الإنطباع الهائل .

بسرعة كبيرة ، أصبحت الثورة ما يضبط التمرد بإسمها . وإذا كان

مناسباً إعادة تعمير العالم كله انطلاقاً من النظـرية ، فإن المتمـرد يصبـح ، بسرعة ، مقتنعاً بلا مسئوليته . أكثر من ذلك فهو يقتنع بنفسه . إن أوصاف الثورات وتفسيراتها العلمية لا تحصى ، إنما تبدو المهمة التي توكلها الثورة إلى الإنسان الحديث واحدة وهي استخراج نظام نهائـي من خلالهـا هذه المأسـاة الأزلية هي أيضاًمناسبة :

التحضير الأيديولوجي

تسبق الثـورة العنيفـة ثورة «صامتـة » (هيغـل) تقلـب كل الأفـكار الموروثة وتُثوِّر العقول وتجرد النظام القديم من شرعيته التقليدية . لا يعود أحد يعتقد بشيء ، ويتأرجح كل شيء . تقدم « فلسفة الأنوار » مثلاً نموذجياً لتلك المرحلة الأولى . غير أن فولتير وديدرو وحتى روسو وكانوا جميعاً مستشارين لدى المستبدين المنورين ، لم يبرمجوا1789 . كذلك لم يبرمج لينين1917 . وإذا كان ماو مهيأ « بالماركسية اللينينية » فقد تهيأ لكل شيء المصادفة فقـراء الريف . إن هذه المرحلة الأولى هي ، تاريخياً ، مرحلة إعادة تعمـير بحتـة واعتباطية . يبقى هيغل : « كل الثورات المهمة والتي تلفت النظر يجب أن يسبقها في فكر الحقبة ثورة خفية ليسـت مرئية من الجميع . . . » . ويبقـى ماو : « لقلب سلطة سياسية ، نبدأ دائماً بتحضير الـرأي العـام ، وبالعمـل الأيديولوجي » . منذ مئتي سنة ، اشتهر العلـم بأشعـال الثـورة ، والمتمـرد بثورته العلمية .

الإرهاب أو الصمود إلى الأقاصي

إن إشعاع الأفكار مميت ليس « للنظام القديم » المهدم وحسـب ، بل أيضـاً للأفـكار . فإذا انعكسـت على بعضهـا البعض ـ سادت شريعـة المشبوهين . إذا كان كل واحد يحمل في رأسه أفكاراً متفجرة ، نفهـم كيف تدحرج الثورة الرؤوس « كما تتساقـط رؤوس البصـل » ، هذا ما يوضحـه هيغل للمعدومين بالمقصلة عام1793 .

جميع المفكرين والفلاسفة يفكرون بالمرحلة الثانية تلك ، عندما ينظرون الصراع المستميث أي صراع الوعي (هيغل) أو الأستلاب وصراع الطبقات (ماركس)

كيف ننهي ثورة ما

« يدخل النهر مجراه » (تروتسكي) . إن الإستقرار الذي احاط هيغل بمواضيعه الأساسية (عندما فكر بنابوليون) يفرض نفسه : وحدة ضد التهديد الخارجي ، نهاية العاصفة وسلاح مدني في الداخل ، إعادة تقسيم رسمي للمجتمع استناداً إلى الوظائف والكفاءات وحتى الثروات أيضاً . من هنا الأعمال الكبرى التي يقدمها للدولة « العقل الهيغلي » أو « دكتاتورية البروليتاريا » أي : الحرب والسيطرة السياسية للإقتصاد ونظام الأكثرية وتربيتها .

أن العلاقة بين المرحلتين الأخيرتين أوثق منها بين الأولى والثانية . لا بد للصراع حتى الموت أن ينتهي ، ولا تمنع كل الراديكالية المعلنة في الثورات الثقافية الماوية (نسبة إلى ماو) التسوية من الظهور فوراً في كل تعبئة جماهيرية : إن « التحضير ترقباً للحرب وللكوارث الطبيعية وعمل كل ما هو في مصلحة الشعب » (ماو) ، إن ذلك هو الإستنجاد بالوظائف الأساسية المعترف بها للدولة من أجل ملء الهوة التي حفرتها الصراعات المستميتة . كل من حلل ، في أساس كل ثورة ، القدرة الكلية للتحضير الأيديولوجي ومن عاشها ، ليس كوليمة عشاء بل كافتراس متبادل ، لا بد أن يصل إلى المديرية Directoire أو الأمبراطورية Empire ، أو النيب NEP ، تلك الصور الإنتقالية لمرحلة ثالثة ثابتة . يسقط مالرو هذا المخطط على الثورة الإسبانية : الأمل والقيامة وتنظيم القيامة (إذ ذاك نظام الحزب الشيوعي والشرطة الروسية في مدريد) .

هكذا يروى تاريخ الثورات ، ربما ، كتاريخ الجماهير التي تتثقف (مرحلة اولى) وتتربى في القلق (مرحلة ثانية) وتنظم نفسها (مرحلة

ثالثة) . ويروى أيضاً كالياذة الدولة التي تفقد نظامها القديم وتتلاشى في أزمة يخرجها منها عمقها أكثر عقلانية وقساوة . أو يروى كأذيسة المثقفين الـذين يفـكرون بحـرية وفـوضى : « سيطـرة الفـكر الحيوانية » تصبـح بفوضويتها دمـوية ويدفـع القلـق المثقفـين إلى استـرداد عقولهـم ، مبـدأ النظـام . هكذا نجـد تصـحيح انحراف مشـالي يمينـي بانحـراف يساري مغامر لصالح سلطة في النهاية ، تصان في اليسار كما في اليمين . كذلك أيضاً مغامرات الأجيال الشابة التي تعتبر كل شيء مسموحاً وتنتهي نهاية سيئة إلا إذا صنعت نهاية .

إن ما يعمل كثورة راديكالية هو قالب حديث للنظام يخضـع ، بإسـم التمرد نفسه ، المتمرد للعلم ، والتمرد للثورة ، والجماعة للإرهابي المناسب . في المرحلة الأولى ، يستطيع العلم كل شيء وفي الثانية تصبح الجماعة قادرة على كل شيء ، أما في المرحلة الثالثة فتفعل الدولة كل شيء . ندرك أن فكرة واحدة عن الثورة تستطيع أن تكون مشتركة بين أنصار السلم وأنصار العنف وتوصل كل هذه الطرق العلمية إلى السلطة المركزية للدولة العصرية ، إذا لم توصل إلى روما .

تظهر الثورة كتجربة ذهنية أكثر منها تاريخية ، وفترة أساسية يدون فيها العلم (البشري) لتنظيم المجتمع على ورقة المجتمع الحاضر البيضاء ، مصور المجتمع المستقبلي المحسوب . باختصار ، الثورة هي ، بالنسبة للمحدثين ، الزمن الذي ننتقـل فيه من ما قبـل التاريخ إلى التـاريخ ، من الطبيعـة إلى الثقافـة ، ومـن سيطـرة الضرورة إلى سيطـرة الحـرية . استنـاداً إلى ليفـي ستراوس ، إنها فترة التلقين الأولي الذي تدور حوله كل الخرافات القديمة . هذا ما قد يدعو إلا الإعتقاد أن تمردات العصر ، إذ أتاحت للثورة أن تحاصرها من الداخل ، انخرطت تلقائياً في الميثولوجيات الحديثة ـ إذاً العلمية ـ التـي تصف الأصل « المقبل » للإنسان والمجتمع البشري « كان أخي افغيني يقول ان الدور الحاسم فـي إعادة المثقفين إلى صوابهم قد لعبته كلمة الثورة التي لم يكونوا يريدون التخلي عنها بأي ثمن ، لا الخوف أو الفساد (رغم أن لا هذا

ولا ذاك كانا غائبين) . كلمة الثورة تلك التي تتمتع بقوة عظيمة تجعلنا لا نفهم لماذا احتاج معلمونا إلى السجون والإعدامات الجماعية[1] . . . » .

التمرد الذي لا ينتهي

ينشأ تجمد التمردات تحت وطأة الثورة النهائية والجذرية عن رفض : المقصود هو الغاء أو بتر الطابع « اللامنتهي » البحث الذي يبدو أن التمردات تتقاسمه مع التحليلات النفسية الناجحة استناداً إلى فرويد . متى توقفت الثورة الفرنسية ! في عام1791 ، كما كان يؤكد بارناف؟ مع الذروة الجاكوبية كما ينعيها معظم المؤرخين اللينينيين تجاه سقوط روبسبيار ؟ مع المديرية Directoire التي تقيم جمهورية « الأعمال » و « الأساتذة » كما يوحي به مؤرخون آخرون ؟ مع بونابرت عندما اعلن يوم18 برومير : « انتهت الثورة » مع لوي ـ فيليب الذي طبع فرنسا نهائياً بالطابع البورجوازي (البيرسوبول) ؟ يجد المؤرخون والفلاسفة وصانعو الثورة صعوبة في إنهاء الثورة بغير الطرق الإعتباطية . ليست الثورة الفرنسية سوى عقدة التمردات المتنافسة ولكنها تصب في مجرى واحد ، وهي بذلك تشبه جميع الثورات ، وحدها الدولة تحاول توحيدها نهائياً بإلغائها شرعياً . للتمردات طريقتان لتجد نفسها في ثورة1789 . الأولى هي أن ترى نفسها منتهية ، تكون الثورة عندها شهادة الميلاد لنظام عصري يرهب التمردات نهائياً . هذه وجهة نظر الدولة وعلم الثورة . أو إذا اعتمدنا مصدراً ثانياً ، تعيد الثورة نفسها دون أن تكون قد بدأت حقاً . كان ميكافيلي ، على ضوء تمردات فلورنسا ، يعتبر أنه كان على الدولة أن تولد من جديد ، بشكل دوري بذوبانها في حركات شعبية .

من المستغرب أن تبدو بعض نصوص ماركس وكأنها توحي بفكرة مماثلة . فهو يبين أن الثورات العمالية بدل أن تجرد الإقتصاد المهيمن الى السقوط ، هي بالعكس عاملاً لا يستعاض عنه في تجديده وتحديثه واتساعه .

---

(1) ن . ماندلستام : ضد كل أمل .

أنها لسخرية مزدوجة تلك التي تجعل التمردات غير نهائية لأنها تجدد عدوها . بالمقابل ، لا يحافظ ذاك العدو على نفسه بكونه محافظاً بل بالعكس عندما يتيح للتمردات ان تهزه . يعمل الإقتصاد الحديث ، اليوم ، في الغرب أفضل مما يعمل في الشرق لأنه يلقى هنا (في الشرق) معارضة أكبر ولأن المالكين لا يستطيعون أن يخسروا من رصيدهم الخاص : « (. . .) منذ1825 ، كانت كل الإختراعات تقريباً نتيجة للصدامات بين العامل ورب العمل وكان هذا الأخير يعمل بأي ثمن على التقليل من قيمة اختصاص العامل . بعد كل اضراب جديد مهما قلت أهميته ، تبرز آلة جديدة(1) » . فالتخطيط السوفياتي بائس إذن : ليس ثمة « اضرابات جديدة مهما قلت أهميتها » إذاً لا آلات جديدة وبالتالي ركود . يقول ماركس أيضاً : يعطي ريكاردو هذه الملاحظة الجديدة أن الآلات هي في تنافس مستمر مع العمل وأنه ، غالباً جداً ، ينبغي من أجل إدخالها انتظار أن يكون أجر العمل مرتفعاً بالشك المناسب . . . » .

اسمعوا « بالشكل المناسب » هذا ! يا للتوسع المقدس ! يا للثورة التقنية والعلمية المقدسة ! كم من إضراب ومن مظاهرة ومن انتفاضة ، كم من تمرد فردي وجماعي يلزمنا لرفع اجر العمل بالشكل المناسب ، وبالتالي دفع المالكين إلى الإنطلاق في ابحاث جديدة ، وجعل الإختراعات ذات مردودية والإستثمار من أجل التطوير ؟

تصنع التمردات القوة المنتجة للتاريخ الحديث . وهي ليست فقط تمردات العمال الإنكليز الذين يفرضون الإسراع في التطوير التقني والرأسمالي كردة فعل ، بل أيضاً التمردات الأميركية لعام1930 التي تسبب انحرافاً في العلاقات بين سائر القطاعات الإنتاجية مولدة الإنتاج المكثف لوسائل الإستهلاك التي تسمى تعسفياً « مجتمع الوفرة » . حولت النضالات التي رافقت الأزمة الاقتصادية الكبرى عام1930 الحياة الإقتصادية كلها ، وأعادت توجيه الإستثمارات الخ ، وذلك بتحديدها نسبة البطالة المحتملة في مجتمع

---

(1) ك . ماركس : بؤس الفلسفة .

حديث . توشك التمردات المناهضة لحرب فيتنام ومقاومة المعارضين الروس أن تمارس هي أيضاً تأثيرها حتى على هذه « القاعدة الإقتصادية » التي يعتقدها الخبراء الماركسيون والليبراليون على بعد ألف فرسخ « عن الإضطرابات النفسية الدرامية » للإنتفاضات الحالية .

إذا تخلى المرء عن غمامتيه الأيديونوجيتين أي عن الثورات النهائية والثورات المضادة القيامية ، يكتشف في التمردات الإجتماعية والفكرية والثقافية حافزاً تاريخياً ، ملح الأرض ، أي كل شيء ولا شيء .

الفهرس

الثمن : ١٠ ل . ل .

او ما يعادلها



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع